أبناء الحروب السبع

أعظم وأروع البطولات فى تاريخ الحروب الحديثة

تأليف

جابر عبد السلام هلال

أبناء الحروب السبع

تاليف
جابر عبد السلام

تصميم الغلاف :
سامر محمود

التنسيق الداخلى :
رفعت حسن سيد سالم

الناشر:
دار العلوم للنشر والتوزيع

رقم الإيداع :
2005/5793

الترقيم الدولى:
977-380-043-6

الطبعة الأولى: 1426 هـ / 2005 م

العنوان:
43ب شارع رمسيس ـ أمام جمعية الشبان المسلمين ـ الدور السادس ـ شقة 71 ـ معروف .

المراسلات:
ص ب: 202 محمد فريد 11518 القاهرة
هاتف :5761400(202)
فاكس:5799907(202)

إدارة المبيعات:
0101636192 ـ 0127221936

البريد الإلكترونى :
Info@daralaloom.com
daralaloom@hotmail.com
WWW.daralaloom.com

إهداء

إلى سيادة رئيس جمهورية مصر العربية ــ حفظه الله.

وإلى سيادة الأستاذ/ محمد حسين ياسين (بيروت).

وإلى سيادة وزير الدفاع .

وإلى سيادة رئيس المخابرات العامة الوزير/ عمر سليمان وجميع رجال المخابرات الذين يعملون في صمت.

وإلى سيادة اللواء أركان حرب مدير الكلية الحربية.

وسيادة الدكتور/ أحمد فرغلي حسن عميد كلية التجارة جامعة القاهرة.

وإلى الأبطال العظماء المخلدين فى الجنة شهداء الحروب (حروب ٤٨، ٥٦، ٦٧، وحروب الاستنزاف ٦٨: ٧٠، وحرب أكتوبر المجيدة ٧٣).

وإلى شهداء الحروب المسلمين فى كل أنحاء العالم.

وإلى روح (الطفـــل خالد) وأمى وزوجتى وأولادى
ســـارة، آمال، ربيع، فيروز، خديجة وإلى شعب مصر
العظيم.
أهدى هذا العمل الوطني الاستبسالي التاريخي.

المؤلف
جابر عبد السلام هلال
محارب قديم

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ وَيَسۡتَبۡشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمۡ يَلۡحَقُواْ بِهِم مِّنۡ خَلۡفِهِمۡ أَلَّا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ يَسۡتَبۡشِرُونَ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٧١﴾ ﴾

صدق الله العظيم

جسر العشاق

بـدأت شمـس الأصـيل تنحدر نحو المغيب فى سماء مدينة السويس وأخذت تجمـع مـا بقى من أشعتها لتتوارى خلف التلال العالية فى الأفق الغربى البعيد؛ لتفسح المكان لقباب المساجد وقمم الجبال.

وأوى كـثير من سكان المدينة إلى منازلـهم يختبئون من هول يكاد يعصف بهم وهـم الـذين لم يعتادوا النوم مبكرين . . ففى المدينة منذ القديم حركة دائبة طيلة اللـيل لا تكـاد تـنقطع . . سـفن تـذهب وتجـيء . . وشـاحنات تمـلأ وتفرغ . . ومصانع يدوى أزير آلاتها ليل نهار.

مديـنة عـريقة تطلّ على شبه جزيرة سيناء، وتمد لـها أصابعها الحانية لتربطها بالـوادى الأم، وتعطـيها مـن قلـبها الخافـق أعـز أبـنائها . . يعملـون ويزرعون ويناضلون . . وتنام تحت أقدامها أمواج قناة السويس كما ينام الطفل على صدر أمـه . . وكأن هذه الأمواج تختزن فى ذاكرتها ما قدمته السويس وبقية مدن القناة مـن تضـحيات وعطـاء . . حتـى تمكـنت هـذه الأمواج من شق طريقها فاختلط البحـران الأحمـر والأبـيض والتقـيا فى عناق أبدى وذاب كل منهما بين أحضان الآخر.

وفـى هـذا المسـاء مـن عـام ١٩٤٨م . . وفـى دار متواضعة قريبة من ضفاف القـناة . وقفـت سـيدة فـى منتصـف العمـر تـتطلع فى لـهفة إلى الأمام، وتمسح بعينـيها وجـوه القادمين عن الضفة الشرقية . . تترقب وصول عزيز عليها لم تره منذ أيام.

والأنوار فى المدينة مطفأة بأمر المقاومة الشعبية . . والأشخاص يتحركون هنا وهناك على بصيص ضئيل من الضوء . يختفون ويظهرون كأشباح من جن فى قصة أسطورية .

ويخفق قلب السيدة حينما تناديها جارة قريبة منها صائحة : يا زينب هذا زوجك قد أقبل مع زوجى . . إننى أراهما من بعيد . . فيعود إلى زينب الهدوء والراحة ، وتسرع بإغلاق النافذة التى تطل منها ، وتتجه إلى المرآة لتصلح بعض شأنها . . وتستقبل الزوج الغائب فوق رمال سيناء منذ أيام .

واطمأنت على أولادها الأربعة النائمين ، وأحكمت عليهم الغطاء خوفًا من هذه النسمات الباردة التى تتسلل مع قدوم الليل مؤذنة بقدوم الشتاء . . كان الأولاد ينامون فى حجرتين متجاورتين . . محسن الأكبر فى مدرسة الصناعات قد أوشك على التخرج ومشهود له بالذكاء والخلق والتفوق . . إنها تريده أن يعمل بعد تخرجه ليساعد والده فى أعباء الأسرة وتعليم بقية إخوته . . لكنه يصر على أن يكمل تعليمه العالى فهو متأكد من قدراته وكفاءته . . ووالده فرح به يستحثه ويشجعه ويعده أن يقدم له كل ما يحتاج إليه ويذلل له الصعب . . ويتمنى أن يراه مهندسًا فى القوات المسلحة ليحقق الأمل الذى لم يصل هو إليه .

إنه (صول) فى القوات المسلحة . . ولم تساعده ثقافته وتعليمه أن يصل إلى أبعد من ذلك . . وعليه أن يغرس الأمل فى قلب ابنه ليحقق أمنية عزيزة طالما داعبت خياله منذ طفولته . . ضابط مهندس يستطيع بقدرته العلمية أن يصنع

شيئًا يصدّ الزحف الصهيونى المدمر القادم من بعيد . . إنه نذير وشرارة فى المجال الذى يعمل به . . هكذا كانت زينب تسمع من زوجها الصول عبد الخالق حديثه المتفائل عن ابنه محسن ، ويذكّرها بأنه ليس أقل من أخواله الذين يعملون فى البحرية ومشهود لهم بالجد والكفاءة . . وقد استعاضوا عن تواضعهم فى التعليم بالمثابرة وحسن التدريب حتى حققوا ما لم يستطع غيرهم أن يحققه .

وسمعتْ ابنها حسين يسعل بشدة بعد وعكة برد أصابته . . جعلته يلزم الفراش وينقطع عن دراسته يومين . . فقد التحق بأحد المعاهد الفنية العسكرية بعد حصوله على الشهادة الإعدادية . . وأعده لهذا المعهد مجموعه المتواضع وبنيته القوية التى تؤهله للعمل العسكرى . . إنه امتداد لأبيه فى كثير من صفاته ولهذا سلك الطريق الذى سلكه والده من قبل ومازال يعمل به . . واقتربت منه لتقدم له بعض المسكنات التى تعينه على النوم . . وألقت نظرة سريعة على ولديها الآخرين جابر وأحمد . . إنهما يسبحان فى نوم هادئ ، ولم يستطع سعال أخيهما حسين أن يخرجهما إلى اليقظة .

وأحمد يكبر جابر بعامين وإن كانا يظهران لمن يراهما كتوأمين . وكلاهما حلو التقاطيع متناسق الأعضاء يوشكان على الانتهاء من المرحلة الإعدادية ، وهما مغرمان بالبحرية يدرسان كل ما يتعلق بالبحر ، حتى صارا يجيدان السباحة والغطس على الرغم من صغر سنهما ، وشهدت لهما المدرسة بالتفوق ، ونالا كثيراً من الجوائز فى هذا المجال ، وشاركا فى كل المسابقات الرياضية التى أقامتها المدرسة أو المحافظة .

وكان الصول عبد الخالق سعيداً بأبنائه يشجع كلاً منهم على الميدان الذى تفوق فيه ويتمنى له المزيد من النجاح . . ولم يقف فى طريق واحد منهم ما دام يجد الطريق سليماً ممهداً يؤدى فى النهاية إلى خيرهم ومصلحتهم .

حتى ابنته الصغيرة زينب التى تنام دائما غير بعيد عن أمها . . ترك لها أحلامها تنمو مع سنها . . فهى تودّ لو تصبح طبيبة تعالج أبناء الحى الذى تعيش فيه ، فكلهم أصدقاؤها وجيرانها تحبهم كما يحبونها وكما يحبون أسرتها ، وهم يلتقون دائمًا فى المناسبات المختلفة يساند كل منهم الآخر ويؤازره ويعينه ، شأنهم شأن سكان الأحياء الشعبية فى كل جزء من مصر . . جمعت بينهم الجيرة وصهرتهم فأحالتهم أسرة كبيرة مترابطة استعاضوا بها عن أسرهم البعيدة التى انفصلوا عنها منذ زمن بعيد . . وأكثر هؤلاء من أبناء الريف الذين نزحوا من قراهم طلبًا للعمل أو استقرارًا فى وظيفة واستقرت بهم الأحوال فكوّنوا مجتمعًا جديدًا يشابه مجتمعاتهم الريفية التى أقبلوا منها وكانت عوضًا وبديلاً عن ماضٍ عاشوه وظل فى وجدانهم حلمًا نُسج فيه عواطفهم من أيام الطفولة ، حتى وجدوا فى هذا التجمع عزاء فيه بعض العوض عن أب رحل وأم غابت وأخوة طوحت بهم الأقدار وسار كل منهم فى طريق .

وعادت الزوجة إلى حجرتها تتهيأ لاستقبال زوج غائب منذ أيام فصففت شعرها ولبست قميصا شفافا يبرز بعض جمالها .

حقًّا إن كفاحها فى تربية الأبناء ومشاركتها الزوج فى تحمل الأعباء الثقيلة والظروف التى لا ترحم قد نالت شيئًا من وسامتها التى كانت مضرب المثل ، ولكنها ما زالت على قدر من الجمال يستهوى زوجها ويجب أن تحتفظ به ولا تستسلم لقسوة الظروف . . فتزوى نضارتها . . وتصبح قصة تروى لجمال ذاهب عبثت به الحياة .

وسارت تتهادى نحو باب الشقة . . حينما سمعتْ وقع أقدام زوجها تقترب ففتحت الباب لتستقبله فى حنان وشوق . . وهى لا تدرى لماذا تحسّ هذه المرة بلهفة نحوه وكأنها لم تره منذ فترة طويلة برغم أن غيبته لم تطل غير أيام

قليلة . . وحملت عنه ما في يديه وأهمها تلك الفواكه اللذيذة الطعم التي تزرع في سيناء وبعض الخضراوات التي لا تتلف سريعًا . . واتجهت نحو المطبخ بما تحمل . . والصول عبد الخالق يتابعها من الخلف متأملاً تقاطيع جسدها الذي فضحه القميص وكأنها تتعمد أن تسير أمامه في تؤدة وهي تتثنى وتتمايل لتثير إعجابه . . وفي المطبخ داعبها مداعبة خفيفة . . وهو يسأل عن الأولاد وأحوالهم . . فردّت عليه تطمئنه بأنهم جميعًا قد ناموا . . وأعطته فكرة مجملة عن كل واحد منهم .

وغادر المطبخ ، وقبل أن يدخل حجرته مرّ على أولاده جميعًا وهم في أسرّتهم . . ولم ينس أن يطبع قبلة على جبين صغرى أبنائه زينب وأعدت الزوجة طعام العشاء بينما الصول عبد الخالق يستبدل ملابسه ويكمل وضوءه ليصلي العشاء ، ثم يقرأ بعض الأدعية التي يؤمن بأنها تصل الإنسان بربه وتمنع عنه الشر . . ومن خلال حياتها الطويلة معه لا تذكر أنه ترك صلاته في يوم ما صحيحًا كان أم مريضًا . . إذ يجد فيها راحة لنفسه وبدنه ، حتى اقتدى أبناؤه به فلم يتوانوا عن الصلاة في يومٍ ما . . ولا يذهب لصلاة الجمعة إلا ومعه أبناؤه الثلاثة فهو يعتبر يوم الجمعة العيدَ الأسبوعي لكل أسرة مسلمة .

وتسللت رائحة الطعام الشهي إلى أنف الصول عبد الخالق فاتجه إلى صالة الطعام ليتناول عشاءه .

ما أقسى الأيام التي يقضيها في سيناء مع وحدته العسكرية لا يتناول فيها غير الأطعمة الجافة ولا يذوقون من الحلوى غير التمر الذي يجمعونه من نخيل العريش . . وتمر بهم الأيام رتيبة مملة يقضيها الشباب من المجندين في أحلام العودة إلى قراهم . . والكبار أمثاله في اجترار الذكريات والتفكير في الزوجة والأولاد وانتظار اليوم الذي يُنقلون فيه غرب القناة . . وبعضهم يود البقاء

طـويلاً؛ فالبديل المادى الذى يأخذونه يساعدهم على مواجهة الحياة، وإذا نقلوا إلى الداخل انقطع عنهم.

وفـى وحدته العسكرية يقضى أربعة أيام ويمنح أجازة بقية أيام الأسبوع، ولم يجـد طـيلة عملــه مـا يستحق هذا العناء. . فالتدريبات العسكرية تافهة لا قيمة لـهـا ولا تصـنع جـنديًا محاربًـا. . إنهـا أشبه ما تكون بالتدريبات الرياضية التى يمارسـها طـلاب المدارس الإعدادية. . والأسلحة قديمة متهالكة لا تحمى حدودًا ولا تـرد عدواً. . حتى الطرق فى سيناء أذابتها الأمطار والعواصف، والوصول مـن مكـان إلى آخـر داخلـهـا فـيه مشـقة وأحيانـًا استحالة. . وكأن سيناء دولة أخـرى لا تـربطنا بهـا سوى علاقة شكلية وليست جزءًا لا ينفصل من مصر. . والملك وحكومته فى واد آخر. . ولا يعرفون عن سيناء وجبالـها وكنوزها إلا ما يقرأونه فى كتب الأديان أو وثائق التاريخ.

جلـس الصـول عـبد الخالق يتناول عشاءه فى صمت ووجوم، وعلى ملامحه القلـق والتوتـر كأنـه يـتوقع شـيئاً أو يخـاف من شيء. . ولاحظت زوجته هذه العصـبية فـى تصـرفاته فلم تقطع عليه حبل تفكيره، بل تركته يعبّر عن مشاعره الداخلـية بصـوت صامت. . فهى تعرف عنه هذه العادة. . حينما تمر به ضائقة مـن نـوع مـا فإنـه سـرعان ما يتغلب عليها ويحتويها. . إلا أن صمته الذى طال ودلائـل التوتـر التى بدت واضحة عليه أشعرتها شيئًا عارضـًا كالذى تعرفه عنه من قبل.

ولم تتركـه يسـبح فـى بحـر أشـجانه. . بـل انتزعته سريعًا إلى شاطئها الآمن الدافـئ وراحت تثرثر معه فى أمور مختلفة هدفها منها أن تعيده إلى طبيعته المرحة المـتفائلة. . فحدثته عن الأولاد ومشاكلـهم ودروسهم ودورها فى غيبته عنهم، ومعاملـتها للجـيران وحسن رعايتهم لـها، وعن الأمور العارضة التى تظهر أو

تختفـى فـى حـياة الناس ومعاشهـم . . وسألته إن كان هناك ما يؤلمه أو يعكر عليه صفو إجازته .

فأجابهـا فـى صوت ينمّ عن ضيق وتشاؤم : لا يوجد دافع شخصى لألمى . . ولكـن الأحـداث التـى نمـرّ بها والغيوم التى تتجمع فى سماء المنطقة وأشاهدها تنذر بشَرٍّ مستطير لا يعرف مداه إلا الله سبحانه وتعالى . فردّت الزوجة سريعـًا : إن الأولاد يذاكـرون دروسـهم علـى بصـيص خافـت مـن ضوء مصباح صغير نحـرص علـى ألا يظهـر شـيء مـن خـيوطه من خلال النوافذ أو الأبواب فنغلق السـتائر حتـى لا يشـعر بـنا أحـد ، ولا نـدرى متـى ينتهى هذه الكابوس المظلم وينقشع من حياتنا . . فحياتنا فى هذه الأيام ظلام دائم ورعب متصل ، حتى فى النهار نخشى أن نسير فى الشوارع المكشوفة خوفـًا من رصاصة تنطلق من الشرق أو الغـرب ، ولا نستردّ أنفاسنا إلا بعد عودة الأبناء من مدارسهم ، وأزير المدافع ودويّ القنابل نسمعه ليل نهار . . ثم يتجدد خوفنا مرة أخرى عند الصباح .

قـال الصـول عبد الخالق وعيناه تنظران إلى بعيد : إن ما تسمعينه أو تشاهدينه لقلـيل ممـا نـراه نحن ونلمسه . . لقد كشّر الشر عن أنيابه ، وظهر الوجه البغيض للصـهيونية المسـتعمرة تسـاندها دول أوربية هدفها هدم العرب والاستيلاء على أرضـهم وكـنوزهم بـدعاوى أسطورية باطلة كتبوها بأيديهم وقالواإأنه من عند الله . . والله منهم برىء .

إن العصـابات الصـهيونية تعـربد فـى كـل مكـان أمـثال عصـابة الـهاجـناه وغيرهـا . . وتتسـلح بأحـدث أنواع الأسلحة وتشترى الأرض من الفلسطينيين بالإغراء والحيلة أو تنتزعها بالقوة والجبروت .

قالـت الـزوجة : ومـن أين لـهم المال والسلاح الذى يتعاملون به؟ فردّ عليها

الصـول عبد الخالق : إن اليهود المغتصبين الذين يملكون الأموال الطائلة فى جميع أنحـاء العالم هم الذين يمولون هذه العصابات ويمدونها بكل ما تحتاج إليه . . ألا تعلمـين أن أكـبر شـركات العـالم يملكهـا يهود أو يساهمون فيها؟ ومنذ أيام تم الإعـلان عـن مولد دولة يهودية فى فلسطين ، وبعد إعلانها بساعات اعترف بها معظـم العـالم . . فقـد بدأ مستر ترومان رئيس أمريكا الاعتراف بها وتبعته بقية الدول .

وها هى العصابات الصهيونية التى ستكون النواة الأولى لجيش إسرائيل تعربد فـى كـل مكان وتنتشر بمخطط مدروس منظم ، وتستعمل كل الأسلحة لتحقيق الـهدف الذى تريده ، سواء أكان هذا السلاح مشروعًا أو غير مشروع ، فهدفهم الذى وضعوه نصب أعينهم أن الغاية تبرر الوسيلة .

وقالـت الزوجة : وماذا فعل العرب أمام هذه الطامة الكبرى؟ وهل سيتركون الـيهود يضـعون أقدامهم الأولى هناك ثم يتسللون إلى بقية البلاد؟ إننى أخشى أن يأتـى يـوم يأخـذون فـيه كل شيء . . وسكتت قليلاً قبل أن تقول : وربما تكون السويس أو غيرها هدف من أهدافهم وليس هذا الجزء من فلسطين فقط .

فـرد الصول عبد الخالق فى نبرة عسكرية صارمة : كلا ، إن كتائب المتطوعين والفدائـيين تأتـى مـن كل مكان لتصدّ زحفهم ، والمعارك تدور فى أماكن شتى ، وعشرات الأبطال من الفدائيين يسقطون صرعى ويكتبون بدمائهم ملحمة رائعة للـبطولة والجهـاد . . ولكن ماذا يفعلون بأسلحتهم الـهزيلة المتآكلة أمام أسلحة قوية حديثة تقدمها أحدث المصانع لـهذه الشراذم من الصهيونية؟ .

لقـد شاهدت بعينى أشلاء وجثثـًا ممزقة على رمال الصحراء لشباب فى عمر الـزهور لم يُقعدهم عن الواجب المقدس أمل فى وظيفة أو طموح لثروة أو رغبة

فى زواج . . وكثيراً ما تمر سيارات العدو فوق أجساد الشهداء جيئة وذهاباً حتى تسويها بالرمال التى استشهدوا من أجلها .

ودمعت عينا الزوجة وهى تقاطعه : وماذا تفعلون أنتم؟ وما الدور الذى تقوم به قيادتكم؟ .

فقال الصول عبد الخالق فى سخرية : نحفر القبور لنودع فيها هؤلاء الشهداء . . فليس لدينا حرية التعامل العسكرى معهم . . ولو كنت أملك الحرية لقاتلتهم حتى بأسنانى . . إننى شاهدت أول أمس من على البعد مجموعة فدائية مكونة من عدة أفراد لا يزيدون على أصابع اليد، وأعتقد أنهم من طلاب الجامعات الذين أخذوا دورة تدريبية سريعة وأتوا ليقدموا أنفسهم قرباناً لوطنهم وعروبتهم . . وأعدوا كميناً محكماً لفيصل يهودى وأحاطوا به على قلتهم إحاطة السوار بالمعصم حتى أبادوه تماماً . . وكم كانت فرحتى غامرة بهم حتى فاجأتهم مجموعات يهودية أخرى لا أدرى من أين أتت وأين كانت، وفى لحظات صار هؤلاء الأبطال فى ذمة الله والتاريخ . وليتهم اكتفوا بقتلهم بل مثّلوا بهم شر تمثيل ولم يتركوا جسداً متماسكاً . . فصبّوا حقدهم على الأموات كما صبّوه من قبل على الأحياء . . وبعد انصراف اليهود تسللت مع بعض زملائى رغم ما يحيط بنا من خطر . . وجمعنا ما بقى من أشلاء متناثرة وحفرنا لها حفرة وواريناهم فيها . . إنه لون من التنكيل الوحشى نشاهده كل يوم لم أسمع به من قبل حتى فى عصور الهمجية الأولى . كأن بيننا وبينهم ثأراً دفيناً يريدون القصاص منه الآن . . فجميع الأديان تحرّم التمثيل بالقتلى، والرسول عليه السلام حرّم التمثيل حتى بالكلب العقور، وهؤلاء يجدون متعة فيما يفعلون من جرائم .

رفعت الزوجة وجهها وقطرات من الدمع تبلل أهدابها وقالت : إننا نسمع

منذ أيام هدير المدرعات وضجيج الدبابات وجنوداً تعلو رؤوسهم خوذات الحرب وأكاليل من الزهور وغصون الشجر تتوج مدافعهم. . وصفقنا لهم كثيراً حينما علمنا أنهم ذاهبون لإنقاذ فلسطين وردّدنا الأناشيد الحماسية لنستثير فيهم العزيمة والقوة. . فهل وصل الجنود المصريون إلى موقع المعركة؟ وماذا فعلوا؟ وأين بقية الدول العربية والإسلامية؟.

قال الصول عبد الخالق لزوجته: نعم. . لقد وصلت طلائع القوة المصرية إلى سيناء وبعضها أصبح قريباً من الفالوجة، وإن كنت أعتقد أنها لا تستطيع أن تهزم العدو أو توقفه عند حده؛ فأسلحتها قديمة، وذخيرتها قليلة، ومستوى التدريب الذى عليه الجنود لا يؤهلهم لمعركة يتغلبون فيها على جنود مارسوا حرب العصابات واحترفوا مهنة القتال. . والضجيج الإعلامى الذى صاحب تلك الحملة أكبر من الواقع الذى هى عليه. . إننى مهدت لهم مع زملائى طريق العبور ولست متفائلاً من نجاح مهمتهم، فملك البلاد يريد فقط أن يقال عنه إنه يدافع عن العروبة والإسلام. . أما بقية قادة العرب وملوكهم فهم يقاتلون من قصورهم، وما أكثر الكلام وما أقل العمل.

وقاطعته الزوجة: يبدو أن القوة المصرية لم تشتبك بعد مع الجنود الصهاينة حتى نستطيع أن نعقد مقارنة بين القوتين.

لكن الصول استدرك يقول: لقد جرت مناوشات متفرقة بيننا وبينهم فى أماكن متعددة لم يكن أكثرها فى صالحنا. . فهم يتّسمون بسرعة الحركة وإجادة استعمال السلاح الذى يملكونه. . وهو سلاح متطور لم نصل نحن إليه بعد.

وفى الأيام القليلة القادمة ستكتب الأحداث المتوقعة صفحة جديدة فى تاريخ فلسطين وسيناء. . بل ربما فى تاريخ المنطقة كلها. . فما أراه ينذر بخطر كبير

يـزداد يـومًا بعـد يـوم، ولن تقتصر المسألة على مجرد تقسيم فلسطين بين العرب واليهود . . فهؤلاء أطماعهم لا تقف عند حدّ . . نسمعها فى أحاديثهم، ونراها فى أفعالـهم وإصرارهم على ما يريدون.

إن سـيناء وبـالأخص الجـزء الملاصـق قـد تحـوّل إلى نار تلتهم فى أتونها كل شيء، ولا ندرى مَن سيحترق فيها غداً أو بعد غد . . ومن سيقدر لـه النجاة.

عـندئذ نظـرت إلـيه الـزوجة نظرة طويلة تحمل فى ثناياها الحب لـه والخوف علـيه وقالـت: لـهـذا أنت ساهم وشارد الذهن . . دع الأمور تجرى كما يريدها القـدر، فلسـنا نملك من أمر أنفسنا شيئًا، وما يريده الله سوف يتحقق . . رضينا أم أبيـنا. لقـد تعلمـنا ونحن صغار أن الأبرياء أحيانا يصابون بذنوب غيرهم . . ومـاذا ننتظـر والفساد يحيط بنا من كل جانب غير ما نحن فيه؟ ربما سلط الله علينا الـيهود ليغسـلوا بجـرائمهم مـا لوثـنا من سيئات . . واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة.

سـرقت أحاديـث الـزوجين جـزءاً كبيراً من الليل الصامت، وذابت الشمعة المضـيئة تحـت وطأة الليل الثقيل، ولم يبق منها غير بصيص ضئيل يتراقص على جـدران الحـائط كأشـباح مذعورة تريد الـهرب . . ووضعت الزوجة يدها على كـتف زوجهـا فـى حـنان ورغـبة وبسـمة يفهـم معـناها . . وانطفـأت الشـمعة المرتعشة . . بينما الزوجان يهاديان نحو حجرة النوم.

أسرة مناضلة

قضى الصول عبد الخالق إجازته مع أسرته يراقب أبناءه ويوجههم ويدبر أمور بيته . . وهو يشعر بالحنان والدفء بين أحضان زوجته، وبالقرب والمودة مع أقربائه وجيرانه . ولم يغب عنه ما يفعله ابنه حسين؛ فهو على صغر سنه يتصل بالفدائيين الذين كوّنوا مجموعات صغيرة سريعة تهاجم المعسكرات الإنجليزية فى السويس وتقضّ مضجعها وتشعرها بالقلق وعدم الأمان . . ونجحت تلك المجموعات الصغيرة فى الإيقاع بالدوريات الإنجليزية ونسف بعض المعسكرات، وأشعرت المحتل بأن مصر لن تستكين، وأن هناك ناراً هادئة تسرى فى الهشيم، وقريبًا ستقضى عليهم قضاء مبرماً .

والأب تتنازعه عاطفتان: عاطفة الوطنية كرجل عسكرى تسرى فى دمائه روح البطولة والنضال، والدفاع عن الوطن . . وعاطفة الأبوة التى تحب الابن وتحرص على بقائه وإبعاده عن مواطن الخطر .

وحاول أن يستدرج ابنه ليفهم منه بعض ما يجرى، والابن يتجاهل ويحول حديث أبيه إلى منعطف آخر، ولكن قصص الابن عن بطولة الفدائيين المصريين وتضحياتهم واستهانتهم بالصعاب أكدت للأب أن حسينًا على صلة مباشرة بالفدائيين .

سمع الأب فى إحدى الأمسيات انفجاراً مروعًا هزّ المدينة، والتمس ابنه حسينًا فوجده فى حجرته يجلس فى قلق وترقب كأنه ينتظر خبراً ما . . وفى اليوم التالى أخبره حسين بأن مجموعة من الفدائيين تسللت إلى معسكر إنجليزى فى هيئة عمال جمع القمامة بعد الاتفاق معهم، ونجحت فى زرع كمية من

المتفجـرات فـى أمـاكن متفـرقة مـن المعسكر ، وتمكنت من نسف جزء كبير منه وقتل بعض ضباطه وجنوده .

إنهـا عمليات رائعة ، ولكن يعيبها شيء واحد . . أن تخطيطها فردى تقوم به جماعات متفرقة بدافع الحماس والوطنية والغيرة على الوطن دون أن تكون هناك جهـة واحـدة تخطـط لـهـذا العمل وترسم لـه الطريق الصحيح . . مما يؤدى إلى سقوط عدد كبير من الأبطال المناضلين .

أوصـى الصـول ابـنه بالحذر واليقظة ، وأن يكون فى مستوى المسؤولية ، وأنه الابن الأكبر الذى يعتمد عليه كسند مهم لإخوته عند غيابه ، فليست البطولة أن تـندفع وتستعجل . . بل البطولة الحقة أن نتروى ونتدبر ونخطط التخطيط السليم الذى لا ندفع ثمنه غاليًا .

وعـبر الجـيش المصـرى قـناة السـويس وتـوغل فـى سيناء واقترب من مواقع العدو . . وكانت الطلائع التى سبقته قد اشتبكت مع العدو فى أماكن مختلفة . . ووصـل الجـيش إلى أبـواب الفالـوجا ودارت معـركة قـوية بينه وبين العصابات الصـهيونية المتمركـزة فى تلك المناطق . . وأوشكت ذخيرة الجيش المصرى على الـنفاد . . وإن ظـل يـناور العـدو بمـا بقـى معه من عتاد حتى وصلت إليه صفقة أسـلحة جديـدة استبشـر بها القادة والجنود ليحرزوا بها النصر . . عرفت ـ فيما بعـد ـ باسـم الأسـلحة الفاسـدة . . وصـارت وسـيلة لدمارهم وهزيمتهم ؛ فقد أعـدت خصيصـا لـتكون وسـيلة هـلاك مـن الخلف ، وتساقط الجنود المصريون بأيـديهم قـبل أن تـنالـهم أيدى العدو . . ونجح المخطط الاستعمارى الغادر فى تحطـيم مـا بقـى مـن صـمود الجـيش المصـرى الـذى تـراجع فى انتظام ليحتمى بالفالوجا بعد أن وضحت أمامه الرؤية ، وتأكد أنه ألعوبة فى أيدى الخونة الكبار فى الداخل والخارج .

ولم ييأس الضباط المحاصرون فى الفالوجا أو يستسلموا . . فإيمانهم بوطنهم وعروبتهم صنع لهم درعًا قوية تصد عنهم ضعف الهزيمة . . وعاش ضباط الكتيبة شبابًا وشيوخًا من أمثال جمال عبد الناصر والسيد طه لحظات بعث جديد . . وتعاهدوا على إنقاذ الوطن من الدخلاء والمرتزقة . . وآمنوا بأن مصر لن يحميها إلا أبناؤها الذين نبتوا من أرضها، واستمدوا حياتهم من عطائها، ودفن آباؤهم وأجدادهم فى ثراها الطيب .

وكانت هذه الهزيمة بداية للنصر . . فنور الفجر الوردى يأتى بعد ظلمة الليل الحالكة . . وفى داخل الفالوجا ترابطت القلوب وتعانقت الأيدى لتصنع لمصر عهدًا جديدًا يردّ لها كرامتها التى حاول أن يخدشها الخونة المرتشون فى غفلة من أبنائها الأحرار .

ولم يكن الصول عبد الخالق بعيدًا عن تلك الأحداث . . فبعد انتهاء إجازته عاد إلى عمله وشارك مع زملائه فيما طُلب منهم أن يشاركوا فيه . . وأدى واجبه على الوجه الأكمل . . فشارك فى إيصال الأوامر والتعليمات إلى قيادة المقاتلين . . وشاهد بنفسه ما صنعته الأسلحة الفاسدة بشباب مصر ورجالها . . وحفر بيديه قبور الأبطال . . وجمع الأجزاء المتناثرة من أشلائهم ليودعها بطن الأرض ويصلى عليها صلاة الشهداء دون أن يعرف إن كان مسلمًا أو مسيحيًا . . فتَحْت علم مصر ناضل هؤلاء وفاضت أرواحهم تحت ظلاله . . وكانت ترنيمتهم الحلوة قبل أن يرحلوا : (مصر والعروبة) .

لم يشعر الخونة والغادرون بدماء هؤلاء الأبطال . . ولم يقدروا كم من قلب سيحترق حزنًا على أعمارهم . . كل شيء أصبح له طعم سيىء . . لم يعد في الحياة معنى حسن أو جميل .

وعاد الجيش المصرى - أو ما بقى من هذا الجيش - إلى القاهرة يحمل فى قلبه جراحًا غائرة وفى عيونه نظرات منكسرة . . وعلى رأسه إكليل من العار لم يكن له يد أو تدبير فى نسجه أو صنعه . إنما اضطر إلى لبسه على هون .

واستقبل الملك الجيش العائد فى احتفال مزيف فى عابدين ليدارى به ما فعله وحاشيته من سوء فى حق هذا البلد الطيب . . احتفال أشبه ما يكون بالاحتفال الجنائزى الذى تدق فيه الطبول ليوارى صاحبه فى التراب . . وينتهى إلى الأبد .

وعانق الملك قائد الكتيبة السيد طه (أو كما لقب بالضبع الأسود) كما يعانق الذئب فريسته التى أفلح فى الإيقاع بها .

وانفض الجمع وفى قلوب الناس شجن وحزن . . وأنات مكتومة لا يسألون أنفسهم : ماذا ضاع منهم وماذا فقدوا من أحبائهم؟ . ولكنهم يتساءلون : ماذا بقى لهم؟ وماذا ينتظر منهم؟ وإلى أى منحدر يتجهون؟ .

وعاشت السويس تلك الأحداث كما عاشتها بقية مدن وقرى مصر ، وإن كانت مدن القناة أشد التصاقًا بما يجرى من غيرها لقربها من ساحة الصراع ووقوعها فى مرمى مدافع وطائرات العدو دائمًا . . وإذا كانت المدافع سكتت إلى حد ما فى الضفة الشرقية للقناة فإنها لم تصمت أبدًا فى مدن القناة حيث المعسكرات الإنجليزية . . ففى كل يوم انفجارات تدوى ومستعمرون يتساقطون وثكنات تتهاوى . . وأبطال يجودون بأرواحهم رخيصة فى سبيل الوطن .

ورجع عدد كبير من الجنود والعاملين إلى السويس . . بعضهم سليم ، وأكثرهم جرحى ومصابون .

ووقفت الزوجة فى شرفة شقتها تنتظر الزوج الغائب الذى لم يخلف موعده من قبل . . وطال بها الانتظار أيامًا وأيامًا دون أن تقطع الأمل أو يتسرب اليأس

إلى قلبها . . يذهب أبناؤها إلى مدارسهم ومعاهدهم بعد أن تزرع في قلوبهم الصغيرة الأمل فى عودة والدهم قريبًا . . وتقف هى إلى جوار النافذة مع موعد كل أذان وكل اسم كريم ينادى . . يملأ سماء الدنيا والأرض : الله أكبر . . لا إله إلا الله . . محمد رسول الله .

ثم تمد البصر عبر القناة وفى كل اتجاه تترقب قدومه أو من يحمل لها أنباء عودته ، حتى جارتها التى كثيرًا ما بشّرتها بعودة الزوج الغائب ، صمتت هى الأخرى . . وتمر أيام وشهور ولا يعود الصول عبد الخالق حاملاً على يديه فاكهة سيناء الشهية ، على شفتيه بسمة الحب والرضى ، وملء قلبه الإيمان والتقوى .

وبحثت الزوجة طويلاً ، ولم تترك بابًا دون أن تطرقه سائلة عن زوجها : أهو فى الأسرى أم المفقودين أم الشهداء . . ولم تجد جوابًا شافيًا من أحد . . فلم يكن لدى المسئولين من السجلات أو البيانات ما يعرفون به من مات أو استشهد أو أسر . . وهذا الغموض دفع الزوجة إلى التعلق بأهداب الأمل فى العثور عليه .

عاشت الزوجة حياة ترهف السمع لكل صوت . . وتسرع إلى الباب عند كل همسة وتترقب وتنتظر دون أن يعود الزوج الغائب . . ووجهت نشاطها إلى أولادها تعدّ لهم مطالبهم وتدبر المال اللازم على قلّته لتسير بهم قافلة الحياة . . ولم تجد مَن يمدّ لها يد المساعدة من المسئولين أو غيرهم إلا بقايا ميراث قليل ادخره لها إخوتها وقدموه لها حينما أحسوا ضائقتها المالية .

واستعانت الزوجة بإيمانها لتتذرع به فى تحمل الصدمة . . وبصبرها تقتحم الطريق المظلم المهجور . . واستراحت إلى اليأس فلم تفكر فى الماضى ، وإنما حملت أولادها على راحتيها لتعبر بهم الصعب وتمكّن لهم من الأرض مكانًا يعيشون فيه .

وكثيرًا ما فكرت فى أحاديث زوجها وإخلاصه وقوة انتمائه لوطنه، وفيما تعرفه من انضمام ابنها حسين للفدائيين فى السويس بطريق مباشر أو غير مباشر، وفرحتها بالنصر وألمها للهزيمة.

ولكن ما ثمن هذا كله؟ أليس الواجب يقابله حق، والتضحية يعوضها عطاء؟ وهل من صدق الانتماء أن يمضى أكثر من عام دون أن تعرف شيئاً عن زوجها أو يتطوعَ أحد ليواسيها ويقدم لها ما يعينها على تحمل تبعات الحياة؟.

لقد طافت على أكثر من مكتب، والتقت بالعديد من ذوى الرتب والألقاب، وكلهم مشغول بنفسه يَعدها أو يمنيها أو يتنصل منها، وما وعودهم كلها إلا باطل وغرور. إن أولادهاَ يشعرون بالمرارة وهم يرون الدولة لا تقيم وزنًا لأبناء شهيد أو مفقود قدم حياته قربانًا لوطنه.. وهل تفعل الدول الأخرى مع محاربيها مثلما نفعل نحن؟. وأى إحباط يمكن أن يشلّ وطنية الشباب حينما يشعرون بالضياع بعد فقد والدهم المحارب دون أن يجدوا من بعده سندًا أو معينًا.

وهى تحرص كل الحرص على التمسك بالشقة التى تؤويها مع أولادها.. وتدفع إيجارها على حساب ضرورات أخرى.. وتقدمت للمحافظة تطلب شقة لأنها تعتبر نفسها زوجة شهيد.. وصدمتها الردود الغبية فعادت أدراجها تكفكف دمعة عزيزة أنزلها الهوان من كبريائها.. وحبست آلامها بعيدًا عن أولادها فلم تشأ أن يروها فى موقف الضعيفة الحائرة.

وفى صبيحة يوم سمعت نقرًا على باب شقتها فسارعت بفتح الباب لتستقبل ساعى البريد الذى سلمها رسالة مسجلة.. فضت غلافها بيد سريعة مرتعشة وقرأت فى سطورها القليلة أن زوجها يعتبر فى حكم المفقود حيث لم يعثر على

اسمه بين الأحياء أو جثمانه مع الشهداء، وعليها أن تتجه إلى مكتب معين لعمل اللازم نحو إجراءات صرف معاشه.. وجلست منهارة على أقرب مقعد لها؛ فآخر خيط واهن ضعيف ربطها بالأمل عامين كاملين تقطعت أوصاله الآن.. وأيقظتها الحقيقة المفزعة أنها فقدت زوجها الحبيب ولن تراه بعد ذلك أبدًا.. هكذا أرادت لها الحياة وشاء لها القدر.

كرست الـزوجة حـياتها لأولادهـا، وتعطـيهم ما بقى لها من قوة وشباب، وبالمعـاش المحدود تدير حياتها محاولة قدر استطاعتها أن توصلهم شاطئ الأمان قـبل غـروب شمسـها . . وفـى كـل يوم تحس أنها تتراجع إلى الخلف؛ فالأعباء أكـبر مـن أن يـتحملها عاتقاهـا الضـعيفان، خصوصًا أنها قد وضعت مولودها الصغير عقب استشهاد زوجها فى الحرب.

وبعـد مـرور عـامين . . وفى يوم لافح من أيام شهر يوليو ١٩٥٢م استيقظت الـزوجة علـى ضـجيج الـناس وأناشيد فى الإذاعة وحركة نشطة فى الشارع لم تألفهـا مـن قبل، وعرفت من ابنها حسين أن الجيش قام بثورة أطاحت بالفساد، وحطمـت أغلال الظلم، وأعادت إلى مصر وجهها الأبيض المشرق الذى سودته الهزائم المتلاحقة نتيجة الإهمال والخيانة والغدر.

وتابعـت الـزوجة أخـبار الـثورة، فلديها من المعرفة التى استقتها من زوجها الراحل الشيء الكثير عن الجيش وضباطه الأحرار الذين كانت تتسرب أخبارهم فـى همـس لا يكـاد يسـتبين أو يصـدق . . حتـى انجلـت الحقيقة وحمل الأحرار أرواحهم على أيديهم ليفدوا بها مصر وشعبها الأبى.

وانتهـى ابـنها حسين من دراسته المتوسطة واجتهدت فى أن تجد له عملا حتى يعيـنها على إتمام إخوته دراستهم . . ولم تجد أمامها وسيلة غير أن تلجأ إلى أحد المسـئولين فـى الـثورة ليعيّن ابنها . . وبسرعة أخذ حسين وظيفة مناسبة تناسب مـؤهله . . فهـو ابن شهيد يجب أن يكرم . . وكانت قد أعيتها الحيل من قبل فى إيجـاد عمـل لـه . . واسـتردّت الزوجة أنفاسها إلى حدٍّ بعيد، وأحسّت أن الدنيا

يمكن أن تعوضها فى أبنائها ولو شيئًا قليلاً مما قاسته بعد رحيل رب الأسرة .

وتلاحقت الأحداث سريعًا . . وشاهدت انتصارات لم تكن تحلم بها فى يوم ما ، فتمنت لو كان زوجها حيًّا ليرى ما كان يتمناه من قبل ويظن أن تحقيقه أقرب للمستحيل .

فالإقطاع انهار تمامًا ، واستردّ الشعب أكثر حقوقه المغتصبة ، وانتهت الأحزاب الفاسدة إلى غير رجعة . . وجرّت فلول القوات الإنجليزية المحتلة أذيالها واستعدت للرحيل . . وسرتْ فى مصر روح جديدة أيقظتها من سبات عميق . . ولم يعد السلاح الفاسد إلى الجنود مرة أخرى . . بل جاء مكانه سلاح جديد حديث . . ونوعت الثورة مصادره . . وأجادت تدريب الجنود على حسن استعماله . . فأعادت لهم ثقتهم فى أنفسهم وقادتهم .

وأشعلت ثورة مصر النيران فى كل مكان ، فهبّت الشعوب المغلوبة على أمرها تقاوم المستعمر وتقضى على الظلمة وتطيح بالخائنين . . وفى كل يوم نسمع عن ثورة فى بلد ورجال حطموا القيود والأغلال واستردوا حريتهم وكرامتهم . . واعتبر ثوار مصر أن ثورتهم هى الرائدة فساندوا كل عمل تحررى يقوم به شعب مغلوب على أمره .

ومرت الأيام سراعًا تثمر كل يوم جديدًا . . وأوشك أحمد وجابر على الانتهاء من دراستهما فى أحد المعاهد التى تدرب المرشدين البحريين وتفاتح الأم ابنها حسينًا فى الزواج . . إنها تريد أن تفرح به وتزيل الصدأ الحزين الذى خيم على قلبها سنوات عجافًا . . ويرد عليها فى رفق : لم يحن الوقت بعد يا أمى ، ولن أفكر فى الزّواج حتى ينتهى أخواى من التعليم وتتزوج أختى زينب . . ويبتسم قائلاً : أنت لِى الأم والزوجة وكل شيء فى الحياة ، لقد حملتِ

الرسالة وذاب شبابك من أجلنا. أفلا ترضَين أن أحمل معك جزءًا من الرسالة بعد أن أصبحت قادرًا على ذلك؟ وتبتسم الأم ابتسامة المحب وتسكت إلى حين، ويتنقل حسين فى عمله بين مدن القناة، وهو سعيد مسرور لأنه يقدم لوطنه خدماته، ويواصل المسيرة التى بدأها والده من قبل حتى سقط شهيدًا فى سبيلها.. وترك أبناءه ليكملوا ما بقى من هذا طريق.

وعرفت الأم ما لم تكن تعرفه من قبل.. عن اشتراك حسين مع الفدائيين فى ضرب المعسكرات الإنجليزية، وسر غيابه الطويل فى بعض الليالى، وعدم تصديقها لوالده حينما حدثها عن شكه فى ذلك.

وعاد حسين فى أحد الأيام مبكرًا ودخل على أمه فرحًا وهو يقول: ألم تسمعى يا أمى بما حدث؟ فرددت باسمة: شغلنى المطبخ وإعداد الطعام لكم عن سماع شيء ما.. فأجابها سريعاً: لقد أعلن الرئيس عبد الناصر منذ ساعات تأميم قناة السويس وعودتها لمصر بعد أن ظلت ردحًا طويلاً من الزمن فى أيدى الأجانب المستغلين. مما كان يمثل أكبر استعمار حقيقى لمصر.. فقد حفرت بأيدى الحفاة والرعاة من أبناء هذا الشعب تحت وطأة السياط والتعذيب.. وحينما أصبح لها عائد يداوى جراح هؤلاء ابتزه الآخرون واستغلوه لأنفسهم.

ووضعت الأم ما بيدها من أشياء وقالت فى فرحة: حقًّا يا بنى؟!.. إنه عمل عظيم؛ فهذه القناة هى المسمار الذى دقه المستعمر فى بلادنا ليظل مهيمنًا به على كثير من الشئون الاقتصادية والسياسية فى بلادنا والمنطقة العربية كلها، وفى يقينى يا بنى أن هذا التأميم لن يمر بسهولة.. فلن ترضخ الدول المساهمة فى القناة لهذا التأميم وتسلّم لعبد الناصر بسهولة.. إنها ذريعتهم للبقاء، ولا أستبعد قيامهم بعمل عسكرى لإجهاض قرار عبد الناصر وعودة القوات الأجنبية إلى مدن القناة مرة أخرى.

وردّ حسين بسرعة: ليس هذا هو موطن الخطر يا أمى.. ولكن كما سمعت فإن عمل القناة سيتعطل بانسحاب المرشدين الأجانب، وهنا يدّعون أن مصالح العالم تعطلت لأن مصر لا تستطيع إدارة القناة وحدها، ويتخذون من هذا دافعاً للقيام بعمل عسكرى.. ونحن لا نملك المرشدين المدربين الذين يعوضون المرشدين الأجانب إذا ما رحلوا.. وأظن أن عبد الناصر لا يخفى عليه هذا المخطط، وأنه قد أعدّ له عدته.

قالت الأم: نعم يا بنى فبقدر فرحى بهذا التأميم أُحسّ بانقباض فى صدرى لا أعرف له سبباً، ويخيل إلىّ أن أحداثاً خطيرة ستقع نتيجَة لهذا التأميم.

وعادت إلى متابعة الأعمال التى كانت فى يدها وهى تقول: نسيت أن أخبرك أننى قدّمتُ لأخويك جابر وأحمد طلبين ليعملا فى هيئة قناة السويس كمساعدَيْن فى الإرشاد البحرى، وعليك أن تحضر لهما شهادة تثبت أنهما نجلا الشهيد عبد الخالق.. وأنت على استخراجها أقدر منى، وهى دافع قوى لسرعة تعيينهما.

ضحك حسين ضحكة عريضة وهو يقول: الحمد لله يا أمى.. ثقى بأننى سأقوم بعمل اللازم، ولن يمر وقت طويل حتى يكونا فى عداد موظفى القناة وعندها تستريحين من متاعبنا.. ولن يبقى معك سوى زينب.. وبعد زواجها سوف تشتاقين إلى متاعبنا.. ولكن مَن سيتركك للراحة؟. سيكون أولاد زينب وأولادنا هم العوض المتعب عنا، وستربينهم كما ربيتينا. وهمس فى أذنها: ألا تفكرين فى زواج زينب؟ لقد كلمنى عنها أحد زملائى، وهو مناسب لها ولا بأس به.. والبنت دائماً مصيرها للزواج.. ويبدو أنه أعجب بأخلاقها فأرادها زوجة له، فعلى بركة الله يا أمى.

ردت الأم بسرعة : لا لا . . إنها مازالت صغيرة لم تبلغ بعد السابعة عشرة من عمرها ، وزواج البنت فى هذا السن الصغيرة فيه مخاطر وأضرار .

قال حسين : إننى أفضل زواج البنت فى سن مبكرة . . ويبدو أن جذور الريف مازالت فى أعماقى ولم تستطع حياة المدينة أن تقتلع شيئًا منها . . وكما تعلمين فإن أبناء الريف يزوجون بناتهم فى هذا السن . وعمومًا الأمر متروك لك تقدرينه كما ترين ، فأنت أدرى بها منى .

قطع عليهما الحديث وصول أحمد وجابر وهما يتغنيان بتأميم القناة والضربة الموجعة التى كالها عبد الناصر للمستعمرين بهذا التأميم ، وبلغ حماس الشعب أشده بهذا العمل الذى رد إليه بعض كرامته المهدرة عبر قرون طويلة مضت .

ونامت مدن وقرى مصر كما نامت مدن القناة على فرحة غامرة بيوم من أيام النصر ، وهللت الشعوب العربية والمحبة للسلام والحرية لحق أعيد لأصحابه . . وأزيح تمثال ديليسبس الذى يقف شاهدًا بغيضًا على النصب والتسلط ، فمن الأولى أن يوضع مكانه تمثال فلاح مصرى مناضل شق بيديه القناة .

واشتعلت قلوب المستعمرين غضبًا ، وأحسوا بقرب نهايتهم فى مصر ، وأن الواجب عليهم أن يبادروا بعمل ما قبل أن تجرفهم مياه القناة وتلقى بهم فى البحر الأبيض أو الأحمر إلى غير رجعة .

وفى صبيحة أحد الأيام ، استيقظت بورسعيد وغيرها من مدن القناة على هدير الطائرات ودوىّ المدافع وفحيح الجنود الأجانب الذين تجمعوا للانقضاض على مصر وانتزاع وليدها المسلوب الذى استردته من براثن المختطفين . . وتحالفت فرنسا وبريطانيا مع إسرائيل التى وجدتها فرصة سانحة لإجهاض ثورة مصر والعودة بها إلى التخلف مرة أخرى .

وانتشر المغتصبون فى المدن الساحلية يريدون أن يعيدوا عقارب الساعة إلى الوراء . . وهبّتْ مصر بكل ما تملك للدفاع عن كيانها . . وحاولت أن تصد بإمكانياتها الناشئة ثلاث دول عاتية تريد ابتلاعها . . وتقاطرت كتائب الفدائيين من كل جانب بكل ما تملك لم يوقفها عجز فى السلاح أو نقص فى التدريب لأن أيمانها القوى ووطنيتها الصادقة أقوىٰ من أى سلاح .

وصارت شوارع بورسعيد وغيرها مصيدة سهلة لجنود الاحتلال . . وتناقلت الأخبار أعظم القصص عن الأعمال البطولية للمقاومة الشعبية التى ظهر أثرها الفعال سريعًا .

فبعض النساء يستدرجن الجنود ويقتلنهم داخل المنازل أو خلف الجدران المظلمة ، واستعملن أغطية القدور حينما أعوزهن السلاح ، فقطعوا للعدو الرقاب وبقروا البطون .

واستعمل الأطفال الأطعمة المسمومة أو المحشوة بالمتفجرات . . وتربص المقاتلون والمتطوعون بهم فى كل مكان فلم يتركوا لهم مهربًا يتسللون منه . . وتحولت هذه المدن ـ كما كانت مصر دائمًا ـ مقبرة للغزاة ، وبقى شعبها الأبىّ رافع الرأس موفور الكرامة .

وأدى جنود الجيش وضباطه واجبهم على خير وجه ، وكانت الملاحم الرائعة التى أوقفت العدو فى مكانه . . ولم يستطع أن يحقق الهدف الذى غامر من أجله . . وهبّت الدول المحبة للسلام تدافع عن حق مصر فى قناتها وأرضها . . ومادت الأرض تحت أقدام الغزاة . . وغرقت فى دماء الأبطال من أبناء هذا الشعب الأبى الذين قدموا أرواحهم فداء لكرامة وطنهم .

ولم ينحن هذا الشعب أو يخضع لأى ضغط أو مؤامرة . . وحينما انسحب

جميع المرشدين الأجانب من العمل بقناة السويس وتوقفت الملاحة فيها استيقظ المارد النائم، وأرشد السفن العابرة بمساعدة بعض الدول الصديقة . . ولم تمض شهور قليلة حتى أجاد شباب مصر عملية الإرشاد ونجحوا فيها نجاحًا باهرًا . . فكأن المستعمر فى الماضى كان يكبلهم بالأغلال ويضع أمامهم العراقيل، وبعد رحيله انطلقوا يبدعون فى كل مكان.

ولم تكن هذه الأحداث بعيدة عن السويس فقد أصابها جانب كبير من هذا البلاء، ودافع أبناؤها عن بلدهم ببسالة وشجاعة، وعاشوا فى محنة عدة شهور انسلخوا من ظلام الليل إلى ظلام النهار . . وساهمت أسرة الشهيد الصول عبد الخالق بأكبر نصيب من الجهاد والنضال . . فحسين الابن الأكبر يعمل فى القوات المسلحة ويتنقل بين مدن القناة، وهو بطبيعته فدائى مقاتل، ولا تكاد أمه تراه إلا بين الحين والآخر لفترات قليلة.

وجابر وأحمد التحقا بالعمل فى هيئة قناة السويس مساعدَين فى الإرشاد البحرى . . ومن هذا الموقع يعتبران أكثر تعرضًا للخطر من أى مكان آخر؛ لأن منشآت قناة السويس كانت هدفًا للمستعمر . . وزينب تخرجت من أحد معاهد التمريض . . واستدعيت مع غيرها على عجل للعمل فى المستشفيات التى اكتظت بالمصابين نتيجة القتال الدائر فى مدن القناة، وهى تقضى لذلك معظم أوقاتها بجانب أسرة المرضى.

وتجلس الأم بجوار النافذة كما كانت تجلس فى الماضى تنتظر الغائبين من أولادها فى ثبات وإيمان لا يتزعزع.

وتعود بها الذاكرة إلى الخلف . . إلى سنوات مضت . . حينما كانت تجلس فى نفس المكان وقد أخذت زينتها تتوقع وصول زوجها بين وقت وآخر . . تطمئن

على نوم أولادها أو تثرثر مع بعض الجيران المقربين منها فى مداعبات باسمة يدور أكثرها حول الزوج الغائب وقرب وصوله . . وهل نام الأولاد حتى لا يشغلوها عن الترحيب بالبطل العائد أم مازالوا مستيقظين؟ وأكثر جيرانها من الذين يعمل أزواجهم بعيدًا عنهم . . فهم جميعًا مثقفون ويتفاهمون بشعور واحد .

عندئذ طفرت من عينيها دمعة وفاء لزوجها الراحل . . فرغم السنوات الطويلة الّتى باعدت بينه وبينها مازالت أصداء الذكريات تطنّ فى أعماقها ولاسيما حين تجلس منفردة . . وكم ودّت لو أن لزوجها قبرًا معروفًا يزار فربما خفف ذلك من لوعتها . . ولكنها لا تدرى أين يرقد جثمانه . . وحملتها الظنون إلى متاهات مظلمة طوّحت بها بعيدًا ، وتذكرت ما كانت تسمع من زوجها عن الشهداء الذين يتساقطون وتدوسهم جنازير الدبابات ويتركون فى العراء يتخطفهم الطير أو تهوى بهم الريح فى مكان سحيق ، ولا يجدون مَن يواريهم التراب حتى يهيىء الله لهم رجلاً شهمًا كزوجها يحفر الأرض ليوارى ما بقى منهم .

ترى هل وجد زوجها من يكافئه بالمثل فيحفر له قبرًا ، أم تناوشته الطيور والسباع ومزقته العربات فلم تُبق له أثرًا؟ .

واستبدّ بها الحزن وفاضت من حولها الذكريات ، فلم تشعر بقدوم زينب حينما فتحت الباب وبحثت عنها فى حجرات المنزل فلم تجدها . . فذهبت إليها فى المكان المحبب الذى اعتادت الجلوس فيه . . وضمتها إليها فى رفق وحب محاولة إبعاد شبح الذكريات الحزين عنها . . فقالت لها : إن شخصًا من أصدقاء إخوتها يرغب فى الزواج منها ، وقد حدثها عنه أخوها أحمد من قبل ، ولكنها لا تريد أن تبتّ فى الأمر حتى تعرف رأيها .

وقالت الأم فى نبرة هادئة وكأن صوتها آت من مكان بعيد : نعم علمتُ به من أخيك أحمد الذى أثنى عليه كثيرًا، وأظنك تعرفينه جيدًا. فإذا كنت ترضين به فأنا موافقة وعلى بركة الله . . ووضعت يدها على رأس ابنتها فى حنان يحمل فى ثناياه أجمل ما فى قلب الأم من عطف وحب لا يوازيه شيء فى الوجود.

وسألتها عن أخيها حسين حيث لم تره منذ أسبوعين تقريبًا وهى مشغولة عليه، ولعلها قد رأته فى مكان ما.

فقالت لها زينب: لا تشغلى نفسك يا أمى فهو فى خير، وأنت تعرفين الظروف التى يمرّ بها الوطن الآن، وهو يتنقل من مكان إلى مكان لأنه موضع ثقة قادته . . فربما ينقل ذخائر أو معدات إلى المقاتلين . . فثقى بالله واعتمدى عليه، فالله خيرٌ حافظًا وهو أرحم الراحمين.

إن المستشفيات تمتلئ بالجرحى حتى ضاقت بمن فيها، ويأتى كل يوم وافدون جدد أطفال ونساء وشيوخ وشباب . . فالمعارك لا تفرّق بين صغير وكبير، والمستعمرون قساة الأكباد غلاظ القلوب لا تعرف الرحمة إليهم سبيلاً . . ومن الخير يا أمى ألا أحدثك بما أشاهده كل يوم من فظائع وأهوال.

وغيّرت مجرى الحديث مع أمها واتجهت إلى المطبخ لتعدّ لهما العشاء . . وبينها وبين نفسها ساورها قلق على أخيها حسين لأنها تعرف مدى كراهيته للإنجليز واندفاعه فى قتالهم والنيل منهم. واستبدّت بها أفكار مزعجة حاولت أن تبددها بأعمال أخرى حتى لا تبدو أمام والدتها فى صورة الخائفة فتزيد عليها الهموم والآلام.

وأعادها إلى هدوئها وصول أخويها أحمد وجابر بعد غيبة استمرت عدة أيام . . وفرحت بهما الأم فرحة غامرة أنستها بعض أحزانها وذكرياتها التى كانت تسبح فيها منذ لحظات.

واستفسرت منهما عن سبب تأخيرهما هذه المدة الطويلة . . فقال لها أحمد : إن الأحداث الخطيرة التى نعيشها الآن هى التى حالت بيننا وبين العودة . . فالمعتدون منتشرون فى كل مكان والمقاومة تلاحمت مع الجيش فى ضرب المعتدى . . الملاحة فى القناة معطلة بعد انسحاب المرشدين الأجانب . . ونحن بخبرتنا الناشئة نحاول تعويض هذا النقص . . وطلبنا الاستعانة ببعض المرشدين من الدول الصديقة فاستجابت لنا اليونان وغيرها . . ولن نستطيع أن نترك هؤلاء بمفردهم فى هذا الجو العاصف الملبد بسحب الحرب ، ودورنا معهم دور المساعد والمعين . . ولاشك أننا نستفيد منهم خبرة ودراية فى مجال كان قاصراً على الأجانب فقط . . ولن تمضى شهور قليلة بإذن الله حتى نتسلم نحن زمام الموقف ونقود السفن الداخلة للقناة والخارجة منها بمفردنا ، ولن نحتاج بعد ذلك إلى مرشدين أجانب إطلاقًا ، ولهذا فإننا نلازم عملنا باستمرار وأُعطينا راحة قصيرة لنطمئن عليك وعلى زينب ولا سيما أنها تمارس عملية التمريض فى مستشفيات أكثرها يقفَ على المواجهة مع العدو .

سعدت الأم بحديث ابنها وتأكدت أنها انتصرت على الظروف التى ناصبتها العداء كثيراً . . ولكن فرحتها بأحمد وجابر لم تُنْسها الخوف والقلق على حسين . . فعاودت السؤال عنه . . ورد عليها جابر بأَن طبيعة عملهما مختلفة ؛ فهما يعملان فى جانب ويعمل هو فى جانب آخر . . ومن النادر أن يلتقيا ، وطمأنها بقوله : سيعود إلينا سالمًا بإذن الله . . فلا تذهب بك الأفكار إلى بعيد وتتخيلين أوهامًا حزينة تنغص الحياة . والتأم شمل الإخوة والأم على مائدة العشاء ، وتناثر بينهم الحديث فى مواضيع شتى من بينها الحديث عن زواج زينب .

وابتسم أحمد وهو يقول لأخته : يبدو يا زينب أنك راضية عن العريس

القـادم، وهو جدير بك ويستحق الموافقة عليه . . وبعد انتهاء هذه الغمة الطارئة وعودة الأمور إلى طبيعتها سنبتّ فى الأمر ونستعد لزواجك .

خفضـت زيـنب رأسـها فـى خجل ورددت : الأمر لكما وأنتما تعرفانه أكثر منـى . . وأعـتقد أن الظروف التى نمر بها لا تساعد على الحديث فى هذا الأمر ، فلـنتركه الآن لنـرى مـا سـيأتى به الغد ، ولا ندرى ما فى ضمير الغد من خير أو شر . . ومتى سينتهى هذا الكابوس الذى تعيشه بلادنا الآن .

وقـال أحمد : اطمئنى ، سينتهى قريبًا ويخرج العدو منهزمًا . . فالمقاومة عنيفة والإصـرار علـى طـردهم عقـيدة ثابـتة لدى كل مصرى . . وأمريكا وروسيا لـم تـوافقا علـى هذا العدوان وهددتا المعتدين إذا لم ينسحبا . لهذا أعتقد أن الظلام سينقشـع قـريبًا وتعـود الأمـور إلى سـيرتها الأولى . وقـبل أن يأوى الأخوان إلى فراشاهما بعد يوم حافل بالعمل وأمسية مشحونة بالحديث والسمر ، قال أحمد : ربمـا أنـتقل يـا أمـى إلى العمـل فى إحدى الوحدات البحرية على شواطئ سيناء لفـترة قـد تطـول أو تقصر . . وهذا سيتم بعد جلاء المعتدين ؛ لأن المسئولين فى القـناة أعجبوا بمهارتى واستيعابى السريع لما أشاهده من المرشدين الأجانب حتى صرت أقوم بالعمل الذى يقومون به تمامًا ولا أقلّ عنهم فى أى جانب ، ولا شك أن فـى هـذا الـنقل ترقية . . فسوف توكل إلىّ مهمة كبيرة أرجو أن أحسن القيام بهـا . وإذا طالـت مدتـى هناك فستأتين معى بعد زواج زينب واستقرار جابر . . وسـبحت الأم طـويلاً بعيـنها تجـاه الشـرق كأنهـا تبحث عن ضالة شاردة هناك وقالت : نعم يابنى . . فربما تعثر على قبر أبيك فى جهة ما تحت رمال سيناء .

وضـع أحمـد يـده على كتفها فى رفق واستمر يقول : اطردى هذه الأفكار يا أمـى وابتسـمى معـنا للحـياة ، ولا يشـدّك الماضـى بأحزانه عن الحاضر بأفراحه وآماله . . إننا نستعد لنفرح بزينب بعد تحرير أرضنا ، وبعدها نحن يا أمى .

كانت كلماته الحانية بلسمًا داوى جراحها . . فعادت إلى إيمانها وصبرها تعتصم بهما، وعزمت على أن تغرس لأولادها طريق الورد، وتعبر بهم جسر الأحزان، ولا تدع طيوف الماضى تترك فيهم أنينًا أو جراحًا . . وابتسمت أما أولادها بسمة راضية سعيدة أودعتها كل ما فى قلبها من حب وأمل وتفاؤل.

وعادت حديثها عن السياسة والحرب لتشعر أولادها بأنها تعيش الحاضر من أجلهم؛ فهم أملها ومستقبلها والخيط القوى العزيز الذى يربط ماضيها بهذا الحاضر.

وقالت: أنا أفهم أن يناصبنا الإنجليز العداء ويحاربوننا، فقد طردناهم من بلدنا شر طردة بعد استعمار دام طويلاً حتى استقر فى وجداننا أنه لن ينتهى أبدًا.

وأفهم أيضًا دوافع إسرائيل فى هذا العدوان . . فهو فرحتها لتنتقم من عبد الناصر الذى أيقظ الأمة العربية وأعاد إليها الروح، ووضعها على طريق الحياة بعد أن أوشكت أن تلفظ أنفاسها الأخيرة . . وهو القوة التى تستطيع أن تقضّ مضجعها فى فلسطين ولا تدع لها فرصة البقاء والتوسع . . وعليها أن تجهض قوته العسكرية التى بدأت تنمو، وغير بعيد سوف تتحول إلى عملاق جبار يبطش بها ويحجم آمالها وطموحها فى التهام العالم العربى وامتصاص خيراته . . ولكننى لا أفهم اشتراك فرنسا فى هذا العدوان وانسياقها وراء بريطانيا إسرائيل.

قال أحمد : إن لفرنسا ثأرًا لدى مصر التى تقف وراء ثورة الجزائر وتمدها بالسلاح والتأييد، وهوارى بومدين قائد الثورة الجزائرية تعلّم فى مصر ويتخذ منها مع رفاقه القاعدة الخلفية لهم . . وأحمد بن بيللا الساعد الأيمن للثورة لا يُبرم

أمـراً دون مشـورة عـبد الناصـر . وهل نسيت يا أمى دور مصر فى تحري تونس والمغـرب وأيـن كـان يعـيش قادة هذين البلدين؟ إن الحبيب بورقيبة أدار معركة اسـتقلال تـونس مـن القاهرة وكذلك زعماء المغرب . . ووجدت فرنسا أن هذه فرصة تنتقم فيها من مصر وتحدّ من نفوذها . . بالإضافة إلى ضياع الأرباح الهائلة التى كانت تجنيها مع بريطانيا من قناة السويس نتيجة لتأميمها .

وكأنمـا كانـت هـذه الحقائـق غائـبة عـن الأم فقالت : نعم . . لقد نسيتُ فى تـزاحم الأحداث ومرور السنين هذه الأشياء . . لقد كان والدكم ـ رحمة الله عليه ـ يشرح لى كل شيء ويعتبرنى تلميذته الصغيرة . . فرغم مؤهله المتوسط إلا أنه كان على ثقافة عالية ، ومعلوماته الغزيرة يستمدها مما يقرأ أو يسمع . . ولم يكن يخفى عليه شيء مما يدور حولنا .

وكـثير ممـن يجالسـونه يجـدون متعة وفائـدة فـيما يمـدّهم بـه من معارف . . ولازالـت أصداء حديثه تعايشنى حتى الآن . . ومن بعده أستقى ما أعرف منكم أو مما يتناقله الناس .

عـادت الابتسـامة إلى أحمـد وهـو يقـول لهـا : ها أنت تعودين إلى الماضى مرة أخـرى . . لقـد أوغل الليل طويلاً يا أمى وتسلل النوم إلى أجسادنا بعد عناء يوم طويل . . فهيا إلى النوم ولنا حديث آخر فى الصباح .

وانصـرف كـل إلى مضـجعه . . يحمـل فى خياله ووجدانه صوراً شتى ربما لا تمـتّ مـن قريب أو بعيد إلى ما يحمله الآخر . . وأوغل الليل فى مسيره وراح كلٌ فـى سبات عميق استعداداً لاستقبال يوم جديد بما يحمل من خير أو شر ، وسلام أو حرب ، وموت أو حياة .



لم يـدم ليل العدوان طويلاً، وانهارت صلابة التحالف الثلاثى الغادر . . ولم تمـض شـهور قليلة حتى رحل المعتدون يحملون أوزارهم على ظهورهم يودعهم الخـزىَ والعـار . . وأفاقـت مصـر من هذا الكابوس المزعج لتعيد تنظيم أمورها وتثب وثبتها الهائلة إلى الأمام .

وراحـت كـثير من الأسر المصرية تبحث عن شهيد لها أو جريح أو مفقود . . فالمعركة مع العدو لم تكن سهلة ولا بد أن يكون لها ضحايا كثيرون .

وتـبدلت أوضـاع وتغـيرت أمـاكن ورحلـت أسر إلى مواقع جديدة ؛ فطبيعة الحياة بعد العدوان تستدعى هذا التحول .

ولم تكـن أسـرة الصول عبد الخالق بعيدة عن هذا التحول . . فلم تعد الشقة المتواضـعة الهادئـة علـى ضـفاف القناة ، والتى حلّقت فيه أجمل الذكريات ، هى نهاية المطاف والمقر الدائم لأفرادها .

فأحمـد تم نقلـه للعمـل فـى إحـدى القـواعد العسكرية البحرية على شواطئ سـيناء وهـو سـعيد بهـذا النقل لأنه رقى إلى درجة أعلى فى سرعة لم تخطر على بالـه . . وسـيتيح له العمل الجديد مزيدًا من الخبرة واكتساب المعارف العسكرية التى يحتاجها . . وأحس بذكائه أن القصة مع إسرائيل لم تكتمل فصولها وأن لها مراحل قادمة أقسى وأعنف ، ولهذا لا يجب أن تنام القوة العسكرية وتتراخى . . فإسـرائيل ومـن خلفهـا وأمامهـا المسـتعمرون لن يبتلعوا الهزيمة التى لحقتهم بل سـيعيدون الكَرة لإثبات وجودهم فى يوم قريب أو بعيد ، وهو يوم آتٍ ولا شك فى ذلك .

ولم يستطع أحمد أن يأخذ أمه معه ؛ فطبيعة المكان لا تتيح له اصطحابها ، كذلك أرجأ التفكير فى زواجه إلى أن تستقر به الأيام فى مأمن مريح شأنه شأن كثير من زملائه الشباب الذين شدّهم العمل الوطنى واستغراقهم فيه عن التفكير فى أى شيء آخر .

وخطر له مرة أن يستدعى أمه لزيارته مع السائحين الذين يفدون إلى سيناء ليومين أو ثلاثة ؛ ليزيل عنها الوحشة والكآبة التى تعيشها ، وتشاهد المناظر الرائعة الخلابة التى ميز الله بها سيناء والجبال المختلفة الألوان التى أبدعتها قدرة الخالق . . والمياه الصافية بأمواجها الهادئة الناعمة التى تداعب الشاطئ وتغازله فى دلال . . وكأنها تذكّر أبناء مصر بجمالها الفتان ، وتغريهم بالقرب منها فلا يتركونها تعانى الإهمال كحسناء جميلة تَغافل عنها العشاق والمحبون .

ولكن أحمد صرف عنه هذا الخاطر بسرعة ؛ فقد يجدد المجيء جراحها القديمة والحديثة ويثير فيها الشجون ولا يصرف عنها الأحزان . واكتفى بزيارتها بين الحين والحين كلما أتيحت له فرصة لرؤيتها والاطمئنان عليها .

وانتدبت هيئة القناة جابراً للعمل مرشداً فى الإسماعيلية واستقر به المقام بها . . وكلما عبر القناة مع السفن الغادية أو الرائحة يختلس ساعات لرؤية أمه وشقيقته ، وهى ساعات قليلة لأن العمل فى القناة بعد العدوان ازدادت كثافته ولابد أن يتحمل هذا الجيل الناشئ من المرشدين العبء الأكبر ويثبتون مقدرتهم وكفاءتهم . . فلا زالت الدولة المستعمرة تتربص وتنتظر سانحة للخطأ والتقصير حتى تبرر معاودة عدوانها مرة أخرى . . وألقى هذا الإحساس تبعات ثقالاً على المرشدين لأنه تحدٍّ فى مواجهة عدو شرس ، ولا بد من النجاح فى هذا الاختبار الأليم الذى يعوزنا فيه كثير من عوامل النجاح والتفوق . ولكن مع الصبر والمثابرة سيوفقنا الله ويحقق لنا ما نريد .

وكلمـا التقى جابر بأمه أعطاها من حبه وحنانه ما يعوضها حزنها وآلامها . . إنـه يحـس بما تعانيه من جراح نازفة لا تريد أن تلتئم . . فلم يترك لها الزمن راحة السـلو والنسـيان بعد فقد زوجها . وكأنما أراد القدر أن يبتليها مرة أخرى ليختبر فـيه قوة الإيمان والثبات . فقد طالت غيبة ابنها حسين وراحت تسأل عنه فى كل مكـان . . فلـم تقـف لـه علـى أثـر . . وتضـافر معها أبناؤها جميعًا وأقاربها فى الـبحث عنه وباءت كل جهودهم بالفشل . . وعاودتها ذكرى غياب زوجها من قـبل . فكلاهمـا ذهب إلى ساحة لم يعد منها ، وهى ترى بين حسين وأبيه تقاربًا كـبيرًا فـى السـلوك والتصـرف ، وقـد تكون النهاية بينهما شبيهة أيضًا وهذا ما تحـس بـه . . وصـهرتها الأحـزان القاسية فأحالتها شبحًا أضناه الألم يدب على الأرض . . ولم تعـد كلمـات العـزاء تترك فى قلبها أثرًا يخفف بعض ما تجد . . حتـى حينما جاءتها رسالة من القوات المسلحة بعد فترة طويلة تخبرها باستشهاد حسـين قـرأت الرسالة بعيون جامدة نزفت كل ما فيها من دموع . . وكأنها تقرأ الرسـالة التـى جاءتها من قبل بخبر استشهاد زوجها . . ووضعتهما معًا فى مكان أمين ليكونا شاهدين عند لقائها ربها وكفى بهما من شهيدين .

وأقـبل جابـر فـى زيـارة سـريعة لأمـه فوجدها تجلس وصورة حسين أمامها تناجـيها وتـتحدث إلـيها كمـا اعـتادت أن تتحدث إليه من قبل فى حياته ، فهو الابن الأكبر الذى طالما بثته شكواها وحمل معها أعباء الحياة ومعاناتها فى رحلتها القاسية .

أخـذ جابر يحدثها أحاديث شتى ليخرجها من هذا الإطار الحزين الذى قيدت نفسها فيه .

فقال لها فى صوت يملؤه الفخر والاعتزاز : لا يحزنك رحيل حسين يا أمى . . فهـو بطـل ضـحى بنفسـه فـى سـبيل الـوطن وانضـم إلى قـوات المقاومـة فـى

بورسعيد . . واستشهد بعد أن ضرب أروع مثل فى البطولة والفداء . . إننى زرت مدينة بورسعيد لأعرف مكان استشهاد أخى حسين، وهناك سمعت ألوانًا من البطولات سيسجلها التاريخ بمداد من النور لتكون درسًا من دروس الوطنية فى البطولة والفداء .

بالأمس كنت أسمع يا أمى كلمات جميلة تنساب عبر الأثير فى نغم يشجى عن عيون مهران . . أبكتنى الكلمات وملأتنى فخرًا . . إنها تصور ملحمة رائعة البطولة فذة شارك أخى حسين مع مهران وغيره فى صنعها .

اسمعى يا أمى بعض هذه الأناشيد الحلوة التى يرويها أبناء بورسعيد عن الصمود والتحدى عسى أن تجدى فيها عزاء وسلوانًا . إن محمد مهران مناضل من أبناء بورسعيد . . عامل بسيط فى مؤسسة متواضعة . . انضم إلى صفوف المقاومة وفجّر أكثر من موقع وقتل كثيرًا من الضباط والجنود . . وتمكنت القوات المعتدية من محاصرته والقبض عليه . . ونقل فى طائرة عسكرية إلى قبرص وطلبوا منه أن يعطيهم معلومات عن أماكن الفدائيين ويلقى حديثًا فى الإذاعة يرحب فيه بوجود القوات الأجنبية فى مصر ليخلّصهم من الحكم العسكرى . . وساوموه على عينيه بعد رفضه كل إغراء مادى . . وقال كلماته الخالدة . . خذوا عينى الاثنتين وفوقهما عشرة ولا أخون وطنى . . ونزعت عيناه فى إحدى المستشفيات . . وأعيد إلى مصر ليعيش فاقد البصر غنى البصيرة، يشعّ نور الوطنية والإيمان فى قلبه، ويصبح قصة حية يراها أبناء بورسعيد ماثلة أمامهم .

وأنت يا أمى زوجة بطل ووالدة بطل . . وسأذهب بك مرة إلى بورسعيد لتسمعى مَا يزيدك إعجابًا بحسين لا حزنًا عليه .

لقد تأكدتُ أن حسينًا كان فى مجموعة أم على . . التى ضُرب بها المثل فى الشجاعة وحسن التصرف وابتكار الطرق المختلفة لضرب العدو فى كل مكان .

فردّت الأم بسرعة وكأنما أثارتها كلمات ابنها : وما قصة أم على؟ فقال أحمد : إنها ممرضة فى عيادة الجراح الكبير الدكتور جلال الزرقانى ، واسمها فتحية الأخرس . . اتفقتْ مع قائد المقاومة الشعبية الرائد مصطفى كمال الصياد أن تأوى الفدائيين فى عيادة الدكتور ومستشفاه الكبير فى وسط المدينة . . واتخذت منها مكانًا لمبيتهم وتجمعهم . . ونجحت فى أن تهرّب لهم الأسلحة من قريتها القابوطى عبر بحيرة المنزلة داخل طاولات الأسماك وبمعرفة الصيادين ، وترسل إلى المستشفى بحجة أنه أطعمة للمرضى . . وفى الداخل تعدّ وتهيأ للعمل وتوزع على الفدائيين .

ونجحت أولاً فى تجنيد الكثير من طلاب مدرسة الراعى الصالح التى يديرها الرهبان الأجانب لأنهم بعيدون عن مواطن الشبهة . . ولصغر سنهم .

وشهدت شوارع بورسعيد أطفالاً فى عمر الزهور يبيعون أصابع العسلية التى يحبها الإنجليز ويسلمونها لهم بثمن أو بغير ثمن . . وينصرفون سريعًا . . وحينما يبدأ الجندى فى التهامها تنفجر بين يديه لتمزقه . . إنها حلو محشوة بالمتفجرات . . ونجح هؤلاء الأطفال الصغار فى زعزعة استقرار المحتلين واستحالت حياتهم فزعًا ورعبًا . . فهم لا يأمنون فى شراء ما يأكلون أو يشربون . . كل شيء يقع فى أيديهم يتحول إلى نار تشويهم وتمزقهم ، حتى الماء الذى يروى ظمأهم صار سمًا زعافًا جعل البقاء فى المدينة يضيق بهم . . وتأكدوا أنه لا ملجأ لهم من هذا العذاب إلا بالرحيل .

ولم تنس مدينة بورسعيد تلك الليلة التى هاجم فيها فيصل من القوات

المعتدية مستشفى الدكتور جلال بعد أن حامت الشبهات حولها نتيجة خيانة أو تجسس . وأحس رجال المقاومة بالخطر وتأهبوا لصد العدو . . وهنا يشع ذكاء أم على وحسن تصرفها فتجمع منهم الأسلحة سريعًا وتخفيها فى مكان آمن وتأمرهم بالنوم على أسرّة المرضى . . فيناموان والأغطية البيضاء تدارى معظم أجسادهم وآهات الألم المصطنعة تبعث من أفواههم . . ومن حجرة مجاورة تنبعث صرهات عالية متشنجة تعلن وفاة أحد المرضى . . وتسرع أم على ومعها الممرضات الوطنيات إلى مصدر الصوت ويقفون أمام الجنود الغزاة صائحين فى وجوهم بشجاعة وبسالة : اخرجوا سريعًا لقد مات أحد المرضى فزعًا من منظركم . . لم يستطع قلبه الضعيف احتمال الصدمة لوجودكم فمات . . دعونا وانصرفوا حتى ندبر أمر دفنه .

وانطلت الحيلة على أفراد العدو وهموا بالانصراف . . وقبل مغادرتهم المكان وجدوها فرصة سانحة ليحملوا معهم كل ما يمكن حمله من الأطعمة الموجودة داخل المستشفى حتى الماء المعبأ فى قوارير أو غيرها أخذوه ليشربوا مطمئنين دون خوف من وجود سُمّ فيه . وكانت المقاومة وكذلك بعض المرضى الحقيقيين فى حاجة ملحّة إلى الأطعمة التى اغتصبت لأن المخزون منها سواء فى المحلات أو البيوت أو مخازن الجمرك نفد تمامًا تحت ضغط الحصار والنهب . . وبات كثير من الناس لا يجدون ما يقتاتون به . . ولم يُقعدهم هذا عن المقاومة فالغذاء شحيح والمدارس مغلقة وجثث الشهداء تملأ الشوارع مهددة المدينة بالأوبئة والأمراض . . والهدف الوحيد الذى يتكاتفون من أجله هو إخراج العدو وإجلاؤه من أرضهم .

ونجحت أم على فى خديعة المعتدين وكانت سببًا فى عودتهم من حيث أتوا . . وبعد انصرافهم بوقت قصير هَبّ المرضى من أسرّتهم، وبُعث الموتى من

رقادهم، واستحال الصراخ والأنين إلى همسات باسمة ساخرة يقف خلفها العزم والصمود، وعادت الأسلحة المخبأة إلى أيدى الرجال تستعد لأداء دورها من جديد.

وقبل أذان الفجر بقليل سمعوا ضوضاء فى أحد الشوارع القريبة من المستشفى فنزل بعض أفراد المقاومة ومعهم حسين ليتبينوا حقيقة ما يجرى، فشاهدوا على البعد وقرب مطار الجميل أفرادًا من المقاتلين يرفعون الأعلام المصرية والروسية ويرتدون أزياء تشبه ما يرتديه المصريون.. وتقدمت بعض الجماهير نحوهم تحييهم وتنضم إليهم؛ لثقتهم بأنهم مقاتلون قدموا لمساعدتهم والوقوف بجوارهم.. وارتاب حسين ومَن معه فى الأمر؛ فليس من التخطيط العسكرى السليم أن يأتى المناضلون الوطنيون على مرأى ومسمع من الجميع بحيث يراهم العدو ويتمكن من القضاء عليهم بسهولة حيث يضعون أنفسهم فى متناول يديه.. لقد أتى ومعه زملاؤه فى خفية وكتمان وتحت مسميات وحرف مختلفة.. وتمكنوا من دخول بورسعيد من منافذ خفية لا يعرفها غير أبنائها.. فكيف يُقبل هؤلاء المناضلون فى وضوح وإعلان عن أنفسهم كأنهم قادمون من معركة ظافرة أبلوا فيها أعظم البلاء وحققوا النصر الذى قاتلوا من أجله.

وقبل أن يفيق حسين وزملاؤه.. سمعوا أصوات الرصاص تدوى من كل جانب فيتساقط الشهداء فى غفلة من أمرهم، والدماء البريئة من الأطفال والنساء والشيوخ تملأ أرض الشوارع.

ووضحت الحقيقة.. فلم تكن الأعلام المصرية أو الروسية سوى خديعة زائفة وقناعًا كاذبًا اتخذه العدو وسيلة للمرور وسط المدينة؛ ليشدوا انتباه أكبر عدد من المواطنين، وينتقموا منهم هذا الانتقام المروع.

وتقـدم حسـين وزمـلاؤه نحـو المعـتدين وفـتحوا عليهم النيران ليردوهم على أعقـابهم ويـنقذوا الأبـرياء مـن بطشـهم وفتكهم . . ودارت بين القوتين معركة شرسـة انـتقلت مـن شـارع محمـد على إلى شارع عبادى . . لم تضعف فيها قناة المقاومـة علـى الـرغم مـن عدم تكافؤ القوتين . . فالعدو قادم مستعد يحمل معه أحـدث الأسـلحة الفتاكة ، ورجال المقاومة لا يملكون غير أسلحة خفيفة أكثرها قديم عف عليه الزمن .

ولم يحـترم العـدو قداسة الدين وجلال العبادة واقتحموا المسجد الكبير الذى تجمـع فـيه المسـلمون لصـلاة الفجـر وغطـت أصـوات القـنابل الـيدوية ودوى الرصـاص علـى أنغـام الأذان الشـجية التـى تنساب فى هدأة الليل تدعو الناس للصـلاة والفـلاح والحـب والتسـامح والـتجمع علـى الخـير والخضوع لله الذى تتضـاءل كـل قـوة أمام قوته . . واختلطت مسابح المصلين بأشلاء القتلة ، ومياه الوضوء بدماء الجرحى ، ورائحة البارود بأريج المسك وأعواد البخور التى تنتشر مـن جنبات المسـجد . . وسكتت الألسنة التى تدعو الله فى هدأة الليل وتحولت إلى دموع ونحيب يشكوان ظلم الإنسان لأخيه الإنسان .

وامـتلأ المسـجد بجـثث القتلـى بحجـة الـبحث عـن الفدائـيين وأفراد المقاومة الشـعبية . . وكان حسين يقف مع زملائه خارج المسجد يقضون على كل أجنبى غـادر يخـرج مـن المسـجد . . فلـم تقـبل عقيدتهم القوية أن تدور المعركة داخل المسـجد ويـتحول أديمه الطاهر إلى ساحة يُقتل فيها الأبرياء وتنتهك الحرمات . . وقـدمت قـوة إنجليـزية من خلف المسجد لتساعد المهاجمين داخله . . وفى ظلمة الليل انطلقت رصاصات غادرة على ظهور المناضلين ، وفى غفلة منهم استشهد بعدها حسين وبعض زملائه .

وكـان التأثـر قد بلغ بأحمد مبلغه فسكت قليلاً يستردّ أنفاسه اللاهثة وخواطره

المضـطربة . . ونظـر إلى أمه نظرة يملؤها الحب والإشفاق . . فكلاهما تظنه عائدا مـن معـركة أو مشـاهدًا المعـركة . . فأحاسيسـها ومشـاعرها امتزج فيها الماضى بالحاضر والسلام بالحرب والموت بالحياة .

وخفضـت الأم رأسـها مـرة إلى الأرض ورفعـتها مـرات إلى السـماء . . ربما تـبحث بخـيالها الشـارد عن مثواه ومثوى أبيه فى الأرض ، أو تطلب لهما الرحمة والسكينة فى دعوات صامتة تنبعث من قلبها نحو السماء .

ولم يـترك أحمـد الفرصـة لأمه أن تستعيد الخيال الجامح الحزين فقال : هذا ما تأكـدتُ مـنه يـا أمـى بشأن استشهاد حسين . إنه مات فى سبيل الله أولاً ووطنه وديـنه ثانـيًا . . وعلـى أعـتاب بـيت من بيوت الله مدافعًا عن المصلين داخله . . وصـعدت روحـه الطاهـرة إلى ربهـا على بساط من نور مع دعاء الفجر ، ودعاء الفجـر مشـهود عـند الله . هـل رأيـت شهيدًا يا أمى أعظم من هذا الشهيد؟ إنى لأتمـثله الآن فى مقعد صدق عند مليكَ مقتدر . . وكفاك فخرًا كما قلت من قبل أنك أم الشهيد وزوجة الشهيد .

وطافـت ابتسـامة باهتة على شفتى الأم لم يدرك أحمد معناها جيدًا وإن أحسّ فـيها بـالألم والصبر . . وقالت له فى صوت خفيض وهى تغالب دموعًا حبيسة فـى مقلتـيها تـريد أن تنهمر ويمسكها التجلد حتى لا تبدو ضعيفة أو منهارة أمام ابـنها فتـزيد حـزنًا علـى حـزن : كـنتُ أودّ أن أعرف مكان قبره حتى أتمكن من زيارتـه وأطبع على أحجاره قبلّة الأمومة التى طالما طبعتها على جبينه فى طفولته وصـباه . . ولكـن يبدو أن هذا الأمل قد ضاع هو الآخر كما ضاع قبر والده من قبل ، وإن كانت الرؤية لا تردّ ذاهبًا وربما تشفى أحيانًا وتريح .

قاطعهـا أحمـد قـائلاً : لا يـا أمى . . لقد دُفن هؤلاء الشهداء فى مقابر جماعية

نظـراً للظـروف التـى استشهدوا فيها، وأسماؤهم مدوّنة على شواهد قبورهم، إلا أن هذه القبور لا تليق بهم كأبطال مناضلين، والمسئولون يعيدون الآن ترميم هـذه المدافن وإحاطتها بأسوار مناسبة تليق بعظمة مَن دُفنوا فيها حتى يظلوا مَثلاً مضـيئًا فـى الوطنـية للأجـيال اللاحقـة . . ولـم أقصّـر فـى زيارة ضريح حسين وقـرأتُ اسمـه علـى الشـاهد الذى نصب فوقه، وقريبًا سوف آخذك لزيارته إن شاء الله .

وقطـع علـيهما الحـديث دخـول زيـنب . . فداعـبت أمهـا بكلمـات مـرحة وأشـاعت جـواً جديداً بدّد مظاهر الكآبة التى شعرت بها عند دخولها الشقة . . وصافحت أخاها أحمد حيث لم تشاهده منذ فترة . . وراحت تثرثر معه فيما يعنّ لها من حديث عن مختلف شئونه وأحواله .

ولكـنه قـال لها : دعك من هذا وحدّثينى عن أخبار العريس المنتظر . . وماذا فعلـتما؟ ومتـى سـيتم الـزفاف حتـى تكون إجازتى فى يوم فرحك؟ أريده يومًا جمـيلاً نغسل فيه أحزاننا ونستقبل غداً مشرقًا يُنسينا الماضى بكل أثقاله وآلامه . . وهـنا علـت حمـرة الخجـل وجـه زينب وابتسمت وهى تقول : سلْ أمى فعندها الخبر اليقين . . وتركتهما يتحدثان واتجهت إلى المطبخ لتعدّ الطعام .

وردت الأم : لقـد زارنـى العـريس عـدة مـرات وأنتما تعرفانه جيداً . . وهو شـاب طـيب تلتقى فيه عدة صفات حسنة تؤهله ليكون عريسًا ملائمًا لزينب . . واتفقـتُ معـه علـى كـل شيء وتم تأثيث الشقة بما يليق . . وانتظرتُ حضوركَ وحضـور جابـر لـنحدد مـوعد الزفاف . . وسيحضر جابر غداً قبل عودتك إلى عملك ونتفق معًا على الموعد الذى لا يتعارض مع عملكما . . وأرجو أن يكون قريبًا . . فهو يلحّ علىّ فى ذلك .

وانـتظم ثلاثـتهم علـى مائـدة الطعام يتحدثون عن فرح الغد المنتظر . . وماذا أحضـروا . . ومـاذا سيحضـرون ؟ وكيف سيكون شكل الحفل الذى تريده الأم بسـيطًا وقـورًا لا يُخـرجها عـن الإطـار الحـزين الـذى تعيش فيه . . ويأبى أحمد وتشـاركه زيـنب فـى هـدوء لا يُغضب أمها . . إلا أن يكون حفلاً جميلاً يتخطى بهـم مـراحل الأحزان ، ويعيدهم إلى ذكريات السعادة ويحملهم على أجنحة من الأمل والتفاؤل إلى عالم جديد سعيد .

مرت الأيام على أسرة الصول عبد الخالق ورفرفت عليها حمائل السلام والأمن والآمال . . وبورسعيد ومدن القناة استعادت حريتها وطهرت أرضها من دنس المعتدين . . وانطلقت أغاريد السلام والحب والبناء لتصلح ما أفسدته الأيدى الهدامة . . وامتلأت القلوب بالأمن والسكينة قريرة العين هادئة البال . . إلا من ذكريات حزينة تنام فى أعماقها يوقظها حادث عابر أو حديث طارئ فتعربد بأصحابها وتلهب مشاعرهم بنار الحنين، ولكنها سرعان ما تنطفئ وتعاود الحياة سيرتها مرة أخرى دون أن يصدّها عائق .

وعاشت زينب مع زوجها فى سعادة تنعم بحب أمها وبرّ أخويها، وملأ حياتها طفل وليد ربط ما بينها وبين زوجها برباط قوى متين أحست بعده بنعمة الاستقرار بعد حياة قلقة يغلفها الثكل والحزن . . ولم ينس أحمد أبدًا زيارة أمه وشقيقته كلما سنحت له الفرصة وخلال عودته من سيناء إلى السويس فى مهمة أو إجازة .

ولاحظ أحمد أثناء عمله فى سيناء أنها لم تعد كمًّا مهملاً أو قصة نقرؤها فى سطور التاريخ وكتب الدين . . بل بدأت تدبّ فيها حياة عسكرية على نحو ما وإن كان باهتًا . . فأنشئت مطارات جديدة، وبنيت وحدات عسكرية، وأعيد ترميم ما أفسدته المعارك السابقة، وصارت موانئ سيناء قواعد عسكرية بحرية يتم فيها التدريب والتخطيط . . وكان لأحمد مع زملائه نصيب كبير فى هذا التدريب والإرشاد . بيد أنه يحسّ بشعوره الوطنى الغيور على أرضه أن سيناء لم تأخذ ما تستحقه من الرعاية وحسن الاهتمام . . فهى الباب الشرقى لمصر منذ عهد الفراعنة . . وقد شاهد فى تجواله بها بعض الحصون الفرعونية التى

صـمدت أمام عوادى الزمن . . ولا شك أنها صممت وبنيت فى عهدهم لتكون الـدرع الأول الـذى يحمى مصر من الخطر الشرقى . . وبقيت شاهدًا حيًّا يذكّرنا بأمجادنا القديمة، ودرسًا نافعًا نستمد منه العبرة . . فما بالنا نحن أهملنا أكبر جزء مـن مصر فى آسيا ولم نَعُـدْ نعرف منه غير بعض الطرق الملتوية التائهة فى رمال الصـحراء، وأشـتاتًا من البدو مبعثرين خلف الصخور والتلال، ومدنًا منكمشة على نفسها يكاد البلى أن يطمسها ولا يبقى لـها أثرًا؟!

ولـو كانـت لـه سلطة القرار لجعل منها كلـها مرتعًا ومسرحًا لجميع المصريين حتى تعيش فى وجدانهم وواقعهم فلا تغيب عن عيونهم أبدًا.

إنـه يشـاهد فـى هـذه الأيـام بعـض الخـبراء الروس يتجولون على شواطئها لـيمهدوا لقاعـدة تبنى أو معسكر ينشأ أو منصات لإطلاق الصواريخ . . وكلـها أعمـال ظاهـرة للعيان يستطيع أن يشاهدها ويستوعبها كل عابر سبيل من هنا أو مـن هـناك حيث يتربص العدو الصهيونى فى يقظة . . ولم يطمئن أحمد لـهؤلاء الخـبراء أبدًا . . فحركاتهم وسكناتهم لا توحى بإخلاصهم وانتمائهم . . وكثيرًا مـا بنيت أشياء ثم هدمت بعد ذلك بقليل بأيد مجهولة . . وتدريباتهم البحرية لم تَعُدْ خافية على أحد . . وكأننا فى مسرح مكشوف يراه جميع المشاهدين.

ومديـنة العريش أجمل مدن سيناء هى المقر الدائم لأحمد ينطلق منها صباحًا أو مساء حسب طبيعة العمل وظروفه.

وهـو يحـب تلك المدينة التى تنام بيوتها المتواضعة على شاطئ البحر فى تثاقل وإعـياء كأنها سئمت الحياة فأخلدت للسكون، لا توقظها سوى هبة نسيم رطبة أو صـوت مـوجة عابـثة تذكّرها بأن الحياة ما زالت فيها بقية من أمل ورجاء . . ومن خلفها تقف صفوف النخيل منتصبة شامخة كحارس أمين يحميها من عوادى

الـزمن . . وفى هذه المدينة عاش والده الفترة الأخيرة من حياته وقدم روحه فداء لوطـنه علـى أرضـها أو بالقـرب مـنها . . وحدثـه بعـض أبـنائها أنهـم شاهدوا العشـرات مـن أبـناء القـوات المسـلحة والمـتطوعين يُقـتلون ويذبحـون فى تلك المـنطقة . . بأيـدى العصابات الصهيونية التى فاجأتهم وهـم عزّل من السلاح . . وفـى بعـض الليالى المقمرة يعود من سفينته متأخرًا أو تدفعه غريزة خفيه للتجول بعـيدًا عنها ، فيشاهد بقايا قبور لعبت بها الرياح والأمطار وتقلبات الجو فلم تبق منها إلا رسوم شاحبة يكاد البلى أن يخفيها ويحيلـها أثرًا بعد عين . . وربما حدثته نفسـه أحـيانًا بالوقـوف علـى أطلالـهـا . . أليس من الجائز أن تكون بقايا والده تـرقد تحـت هـذا الـتراب . . ولكـنه سرعان ما ينصرف ويعود أدراجه إلى داخل العـريش فـى صـمتها الـهـادئ الوقور . . ليأخذ قسطًا من الراحة استعدادًا ليوم جديـد وعمـل جديـد . . ولم تكـن جـولاته تلك تخلو من فائدة . . فعلى مرمى البصـر يشـاهد حـركات مريبة وتحركات غامضة كأشباح من الجن تتراقص فى ظلمـة اللـيل ، ولا ينكر أبدًا أنه أحس بالخوف مرة ومرات ثم واتته الشجاعة أن يتـبين حقـيقة مـا يجرى ، فتأكد من وجود أفراد يتنقلون من مكان يخفيهم الظلام الدامس والفراغ الموحش .

إن شـيئًا خفـيًّا يجـرى علـى أرض سيناء وقريب من حدود إسرائيل ، وهناك أشخاص يروحون ويجيئون فى غفلة من الأعين .

ترى مَن هم؟ وماذا يفعلون؟ وأى أمر يخططون لـه؟ لابد أنها أمور خطيرة ما دامت فى صمت وحذر وخفاء .

ولم يعـد لدى أحمد شك فى أن الأيام القادمة ستشهد أحداثًا مروعة وستكون سيناء مسرحًا لـها . . ومجالاً للصراع فيها .

إن إسرائيل لم تَنَمْ عن هزيمتها وخيبتها فى العدوان الثلاثى ، والاستعمار يتخذ منها مخلبًا لينشب من خلالها أظفاره فى مصر وبقية البلاد العربية . . وإذا انهارت مصر تداعت بعدها بقية البلاد العربية فى سهولة ويسر ، وأصبحت لقمة سائغة يلتهمونها فى أى وقت يريدون .

وهمس بمعلوماته تلك لبعض قادته فلم يُعرْها أكثرهم التفاتًا . . فنشوة النصر فى بورسعيد مازالت تخدرهم وتجعلهم يعَيشون حلمًا طويلاً جميلاً لا يريدون اليقظة منه . . والاستعداد لما هو آت فى القريب أو البعيد .

ويسمع من بعضهم أن مصر تملك أكبر قوة ضاربة فى الشرق تخيف بها الجميع ، فينظر أمامه فلا يجد ما يصدق هذا القول .

وأفلحت روسيا فى إذكاء هذا الشعور بصفقات السلاح والخبراء والمدربين . . وفرشت لنا طريق النصر وعبّدته كأنها وضعت على أعيننا غطاء لا نتبين من خلاله مجاهل هذا الطريق ومخاطره .

صدقنا فى ثقة تامة أنها تمدنا وتؤازرنا ولن ينالنا أحد بسوء ما دامت معنا .

هكذا كان شعور بعض القادة والمسئولين ، إلا أن الحقيقة لم تكن خافية على كثير من القادة أيضًا ، ولكنهم لا يملكون من الأمر شيئًا .

وذهب أحمد لزيارة والدته فى السويس كما تعوّد أن يزورها من قبل ، وطلبت منه أن يأخذها معه لمشاهدة مدينة العريش التى كان والده يعمل بها قبل استشهاده ، وألحّت عليه فى الذهاب هذه المرة .

ولم يتردد فى الاستجابة لما تريد . . فطالما عرض عليها أن تأتى لزيارته وكانت ترفض ، وإن كان فى الواقع يخشى من إثارة مشاعرها وذكرياتها القديمة ، التى يحاول هو وإخوته أن يبعدوها عن اجترارها مرة أخرى ؛ حفاظًا على صحتها التى مالت إلى الضعف فى السنوات الأخيرة .

وسافر أحمد وبصحبته والدته التى أقامت فى العريش يومًا أو بعض يوم ريثما استراحت من السفر وشاهدت معالم المدينة . . ثم سألته عن رجل من أهل العريش يسمى حماد سليمان سلام . . كان صديقًا لوالده وكثيرًا ما زارهم فى منزلهم بالسويس وتعرفه ويعرفها جيداً .

وحاول أحمد أن يصرفها عن هذا المقابلة إلا أنها أصرّت عليها وتمسكت بها . . فهو يعرف مبعث هذا الاصرار والسبب الداعى لها .

ولم يكن عسيرًا العثور على الرجل والوصول إليه فالمدينة صغيرة وجميع سكانها يعرف بعضهم بعضًا .

وحضر الرجل فى اليوم التالى تعلوه الدهشة عن سبب استدعائه لقوم لا يعرفهم ولم يرتكب ما يجعله أهلاً لهذا الحضور .

وأقبل يتوكأ على عصاه فى ضعف ووهن يحمل على كتفيه أعباء سنوات طويلة من الزمن . . لم يبق منه غير هيكل فان يدبّ على الأرض . . وعرفت الأم ملامحه التى أخفت الأيام كثيرًا من سيماها . . فنادته باسمه . . وتأمل وجهها طويلاً فم تسعفه الذاكرة بمعرفتها . . أجلسته فى رفق . . وأخذت تسرد عليه أخبار الصول عبد الخالق وزياراته المتكررة لهم فى السويس . . وصداقته القديمة لزوجها . . ورويدًا رويدًا استرد الرجل ذاكرته وكأنه أفاق من سبات طويل وبعث من زمن غابر . . وقام متعثرًا ليصافح الأم مرة أخرى ويشدّ على يدها فى ود وكأنه يكفر عن ذنب كبير ارتكبه بنسيانه لها ولزوجها . . ولعن الظروف القاسية التى أنسته كل شيء حتى أحب الناس إلى قلبه . . وطفرت من عينى الرجل دموع قليلة ذابت داخل لحيته الكثيفة . . وهى على قلتها دليل صادق على إخلاص الرجل ووفائه . . وقال فى صوت متقطع مرتعش كأنه

آت مـن غور سحيق : رحم الله الصول عبد الخالق . . لقد كان نموذجًا فريدًا فى كلِّ شيء ، وبموته فقدتُ أعز إنسان لى وأخلص رجل عرفته .

ولـم تتركـه يكمـل حديثه . . بل أسرعت قائلة : ماذا تعرف عن موته يا عم الشيخ حماد؟ وأين قبره إن كان لـه قبر؟ وكيف مات؟ .

فـرد الشيخ مقاطعًـا : مهـلاً يا ابنتى ماذا يجدى الحديث الآن؟ لقد مضى كل شـيء . . وأصبح الجميع فـى ذمة الله . . والحديث عنهم يثير الشجن والألم ، ولـك فـى أبـنائك خـير العوض . . لقد عاش زوجك رجلاً . . ومات بطلاً . . وفى هذا أصدق عزاء لك .

فقالـت : نعـم . . فقـط أريـد أن تـروى لى شـيئًا عن أيامه الأخيرة . إن كنت تعرف . . حتى تكون سلوانا لى فيما بقى من عمر .

ونظـر حمـاد إلى أحمد . . كأنما يأخذ رأيه فيما يريد أن يقول . . فهز رأسه دلالة الموافقة .

وسـرح الشـيخ ببصره بعيدًا يستجمع شتات الحديث الضائع فى رمال الزمن ليرويه للزوجة والابن .

وقـال فى نبرات أقرب ما تكون للنحيب : أذكر تمامًا ذلك اليوم القاسى الذى لم أعـرف لـه مثـيلاً من قبل فى حياتى : كنت أعمل فى قوات الحرس الوطنى تحت قيادة اللواء ٢٨ . . وعند مطار العريش قابلتنا كتيبة من العصابات اليهودية تمتطـى سـيارات مجنـزرة . . كـنا عشـرين فردًا أكثرهم من العاملين فى القوات المسـلحة ، وثلاثـة أو أربعـة لا يـرتدون الـزى العسكرى . . وأنا واحد منهم . . وكـان والدك من المجموعة العسكرية . . إلا أنهم لم يخرجوا للقتال . . بل كانوا عائدين من مهمة .

وأوقفتنا العصابة اليهودية للتفتيش ونحتني جانبًا ومعي اثنان وأمرت بقية المجموعة أن تنظر إلى الخلف وكان أول الرافضين والدك في شجاعة نادرة وآثر أن يقابلهم بوجهه ولا يولهم ظهره . . وأخرج والدك مسدسه من جيبه في سرعة البرق وقتل ثلاثة ضباط وجندي ثم استشهد بعد ذلك . . وفي سرعة ووحشية انهال الرصاص من داخل سيارات الجيب ليحصد المجموعة بأكملها . . وشاهدت والدك ينهار على الأرض والمسدس في يده اليمنى . . وأسرعت إليه بعد انصراف الإسرائيليين فوجدته يلفظ أنفاسه الأخيرة . . وبيدي هاتين أغمضت عينيه ولقنته الشهادة الأخيرة .

وهنا سأله أحمد : ولماذا أمروهم بالنظر إلى الخلف؟ فقال الشيخ : إنهم سيقتلونهم في جميع الأحوال . . ولكنهم لا يعرفون أن عقيدة المسلم تدعوه ليقتل في المواجهة ليدخل الجنة كشهيد، ولا يقتل من الخلف . . فهذا جبن وفرار يحرمانه الثواب، وهم لا يريدون لهم الحياة في الدنيا ولا الجنة في الآخرة .

و بعد ذلك جمعتُ بعض أقاربي وقمنا بحفر قبر جماعي وواريناهم فيه كما استشهدوا . . فالشهيد لا يغسّل ولا يكفن . وتقديرًا لمكانة الشهيد عبدالخالق في نفسي وضعته في قبر مستقل تحت جزع شجرة كانت وارفة . . فإنه كان دائمًا سمحًا كريمًا معطاءً قبل أن يجود بروحه الطاهرة . . وكانت هذه الشجرة منذ زمان بعيد شجرة رمان .

وقاد الشيخ الزوجة والابن إلى المكان الذي دفن فيه الشهيد على مسافة غير بعيدة من العريش . . فقفوا على أثر باهت لا يميزه عن غيره إلا بقية ضئيلة من لجذع شجرة أوشكت أن تمحو سطورها الأيام وحجر كبير قال عنه الشيخ إنه وضعه ليكون شاهدًا أو علامة . . ووقفت الزوجة لحظات جمعت العمر كله

وتـركت العـنان لبقـية مـن دمـوع حبسـتها فى صدرها سنوات طوال . . كانت دمـوعًا غالـيه ضـنّت بهـا أن تنـزل إلا لـتروى قبر زوجها الشهيد أو يمتصها هذا الرمل الذى ضم جسده فى يوم حالم حين لم يجد بجواره قريبًا أو حبيبًا .

ولا تـدرى إن كانـت وقفـتها طالت أم قصرت . . ودموعها تجمدت أم ظلت منهمرة . . وعيناها تحولت عن هذه البقعة الغالية من الأرض أم تعلقت بها .

وإنمـا الـذى أدركته حقـًّا أن الشيخ أجهده الوقوف فألقى بنفسه على الأرض بجـوار عصـاه، والشـمس مالـت للاحتضـار فى الأفق الغربى مؤذنة بالنهاية . . ورياح خفيفة تحمل الرمال فتلقيها هنا أو هناك . وأخذ أحمد يد أمه فى رفق طالبًا منها العودة . . فاستجابت لـه فى استسلام . . وقبل أن يدخلا المنزل قالت لـه : أريد أن أعود فى الغد إلى السويس . . لقد حققت أملاً عشتُ أبحث عنه سنوات حتى عثرت عليه . . وكنت واثقة من العثور عليه مهما بعدت الأيام .

استقام العمل فى قناة السويس كمجرى ملاحى عالمى يصل الشرق بالغرب . . وأثبت المرشدون المصريون دقة وكفاءة فى عملهم وبسرعة فائقة استوعبوا ما تلقوه من معارف، وقادوا القوافل البحرية خير قيادة . . وكتبوا لأنفسهم شهادة النجاح ليتوجوا به النصر العظيم فى بورسعيد الباسلة .

ولم تعد مصر فى حاجة لأن تستجدى الدول الأجنبية حتى يرسلوا لها المرشدين . . بل شهد لهم الجميع بحسن الإدارة وجمال التنظيم .

واستقر جابر فى الإسماعيلية كمرشد مساعد يؤدى عمله على خير وجه . . ورشحته الهيئة مرشداً وهو ينتظر الترقية الجديدة يومًا بعد يوم . . ولم يقصر فى زيارة والدته وشقيقته بالسويس كلما مر عليها، وأحيانًا تزوره فى مقر عمله لتقضى معه أيامًا وكذلك شقيقته . . وداوت الأيام جراح الأسرة فتطلعت إلى المستقبل تحاول أن تبنى ما هدمه الأمس وهده الحزن، وأشرقت بسمة خفيفه فى سماء الأسرة تمسح دموع الماضى وتداوى الآلام .

لم يفكر أحمد فى الزواج وكذلك جابر . . وامتص العمل المتواصل جهدهما واستنفد وقتهما وملك عليهما حياتهما .

وبرمت الأم من كثرة الحاحها عليها فى هذا الأمر . . فليس أسعد للأم من أن ترى أبناءها يكونون أُسراً سعيدة، ويضيفون إلى عمرها عمراً جديداً بالأبناء والأحفاد . . وصمتت حين لم تر منهما استجابة مؤمنة بأنهما سيحققان ذلك فى الزمن القريب .

وأغلق أحمد قلبه عن كل شيء إلا عن عمله الذى أحبه كل الحب ووهب له

عمره وكأنه يثأر بهذا العمل المتواصل لوالده الشهيد وأخيه البطل . . ولا يود أن يترك ولو ثغرة ضئيلة يتسلل منها العدو مرة أخرى . . ليزرع الأسى وينشر الحزن ويسيل الدموع .

وجنت مصر من قناة السويس ثمارًا طيبة بسواعد أبنائها الأبطال لتتمكن بهذا العائد من بناء السد العالى الذى رفض البنك الدولى بإيعاز من الدول الاستعمارية تمويله بعد موافقته عليه من قبل لتهديد مصر والضغط عليها . . ولم تعد الحرب فى ميدان واحد بل تجاوزته إلى عدة ميادين . . سياسية واقتصادية وغيرها . . مما دفع الأيدى أن تتشابك والقلوب أن تتعاون للخروج من هذا الحصار الذى أخذ يضيق الخناق على شعب آمن يريد أن ينعم بحريته ويسترد حقه المسلوب . . وأحس أحمد كما أحس جابر أن عين الاستعمار لم تغفل ولم تنم، وأنها تتحين الفرص لمعاودة الانقضاض مرة أخرى ولو بشكل غير مباشر عن طريق إسرائيل . . فأمدتها بالأسلحة المدمرة وبأحدث معدات الحرب الحديثة لتكون يدها التى تبطش بمصر والعرب .

ولم تبخل الدولة على الجيش بما تستطيعه، فأمدته بما يعينه على الصمود والتحدى أن لم يكن الانتصار والفوز، وصار لها جيش ذو عدد وعدة من حقها أن تعتز به ويكون سندًا لها فى المحن .

ولم يعش جابر حياة سهلة فى عمله الجديد . . فهو ينتقل من سفينة إلى سفينة من الشمال إلى الجنوب والعكس . . ومن باخرة مدنية إلى حاوية تجارية أو عسكرية . . وفى عمله داخل السفن يسمع الهمس يدور عن أزمة عسكرية ستنشب قريبًا بين مصر وإسرائيل . . واستطاع أن يلتقط بعض الأخبار من هنا أو هناك لينسج من خيوطها واقعًا يؤكد أن صراعا بدرجة ما لابد أن يقع بين الدولتين، وأن إسرائيل أعدت العدة لما تريد .

ولم يبخل جابر عن مرؤسيه بما يسمعه من أخبار حتى يكونوا على بينة ويوصلوا هذه الأخبار إلى من بيدهم الأمر . . وكثيراً ما التقى بأخيه أحمد على مائدة أمه أو شقيقته أو فى زيارات عابرات . . فيتجاذبان أطراف الحديث فى موضوعات شتى من هنا أو هناك إلا أنهما يلتقيان فى نقطة واحدة هى الخطر الإسرائيلى المرتقب الذى يحتم أن نتأهب له ونستعد لوقوعه استعداداً كاملاً .

وحققت الأيام لجابر الأمل الذى يتمناه ؛ فرقى من درجة مساعد مرشد إلى درجة مرشد نتيجة لكفاءته ونشاطه وإخلاصه فى عمله .

واستدعى إلى إدارة هيئة القناة لبعض المهام التى تتعلق بوظيفة الجديدة . . وفى خارج الهيئة بالقرب من أحد مبانى التوجيه للسفن . . التقى بفتاة تقف على سلم مرتفع واقترب منها يسألها عن بعض ما يجهله كواحدة من العاملات فى الهيئة . . وفى بسمه وديعة أجابته الفتاة عما يريد . . وقادته إلى المكان الذى يقصد الذهاب إليه . . وفى الطريق عرفته بنفسها . . فهى تعمل فى إدارة توجيه السفن منذ سنوات قليلة والتقط اسمها من أحد المنادين عليها . . الآنسة آمال . . ولمس احترام زملائها لها وهى تسير بجواره ، وتأملها جيداً . . كأنه يقرأ قصتها من قسمات وجهها ووقع خطاها . . إنها فتاة فى مقتبل العمر . . مصرية الملامح تختزن فى وجنتيها بقية من أشعة الشمس الغاربة ، وفى شفتيها طلعة الورد حينما يتفتح عن أكمامه فيمتزج فيه الأحمر والأبيض ليصنعا معًا لونًا جديداً تعرفه المشاعر والأحاسيس قبل أن تدركه العيون والأبصار . . وتهفهف خصلات من شعرها الفاحم فوق خديها تداعبها فى حب وحنان ثم تتوارى خجلاً من هبات النسيم الجرىء . وأحس جابر كأنه يرى فتاة لأول مرة ، وأن شيئًا ما يقرّب بينهما ، بل خيل إليه أنه يعرفها منذ زمن بعيد . . وغابت عنه فترة من الزمن ثم التقى بها فجأة . . شعور غريب يتملك الإنسان أحيانًا حينما

يجـد مَن يتسلل إلى قلبه . . أليست الأرواح جنودا مجندة، ما تعارف منها ائتلف وما تنافر منها اختلف؟ وعرف جابر مكان عملـها قبل أن تتركه، وذهب لقضاء أمـوره التـى جـاء مـن أجلـهـا . . وطـال بـه الـوقت حتى اقترب موعد خروج المـوظفين إلى مـنازلـهم وتـباطأ فى انصرافه . . ووقف غير بعيد من مكتب آمال حتى رآها تتهيأ لمغادرة المكان فاقترب منها مدعيًا أن الصدفة وحدها هيأت لـهما هذا اللقاء ليجدد شكره على ما قدمته من خدمات.

وعـرض علـيها أن يـرافقها فى الطريق فلم تأذن ولم ترفض . . وراح يحدثها عـن نفسـه وعملـه . . ولأول مرة فى حياته يشعر أنه يريد أن يتكلم ويطيل فى حـبل الحـديث دون أن يـنقطع . . واتخـذ مـن ظـروف العمل وسيلة لما يريد . . وكـيف أنـه سـاهم مـع غيره فى دحض افتراء الأجانب بعجزنا عن العمل الذى يقومون به حتى تفوقنا عليهم فى كل شيء وشهدوا لنا بذلك . . وأصدق شهادة ما جاءت من فم العدو.

وتـركته آمـال يسترسـل فى الحديث دون أن تقاطعه إلا ببسمة خفيفة شجعته على الاستمرار فى كلامه كأنه يحكى قصة الزمن الذى ظلت حبيسة طى وجدانه حتـى وجدت المتنفس الذى تنطلق منه فانسابت بلا قيود . . ولم يشعر جابر أنه يكلـم إنسـانًا غـريبًا عنه . . فصوتها يتردد صداه فى أذنيه، وخطواتها توقع لحنًا رتيبًا جميلاً يشدّه إلى اقتفاء أثره.

والتفـتت آمال إليه قائلة: إننى أعرف عنك كل شيء، وما ذكرتَه ليس بجديد علـيّ . . فطبـيعة عملى فى الـهيئة تحتم علّى ذلك . . وطالما سمعت صوتك فى الميكـروفون تطلـب شـيئًا أو تستفسـر عـن أمـر أو تسـتجيب لتوجـيه من مركز الإرشـاد هـنا . . ورصيدك من الثناء والتفوق كثير مما جعلك فى قائمة المعروفين لديـنا جمـيعًا كـواحد مـن أبـرع المرشـدين فى هيئة القناة الذين نعتز بهم اعتزازًا كبيرًا.

واقتربا فى خطواتهما من حى شعبى فى أطراف الإسماعيلية . . وأشارت إلى مكان منزلها، ومن الضرورى أن يذهب كل منهما فى طريقه . وقبل أن يفترقا أخذ منها موعدًا باللقاء مرة أخرى . . وعرف أشتاتًا عن حياتها وحياة أسرتها .

كانت تمثل جيلاً عاش فى ظل العدوان وذاق ويلاته . . وابتلى بناره . . وشقتها من الخارج توحى بالبساطة والتواضع كشقق الحى الذى تقع فيه . . مات والدها وهى ما زالت صغيرة، واستشهد أخوها الأكبر فى نضاله مع المستعمرين . . وعرف منزلها الترمل والثكل كمئات المنازل فى مصر التى أصابها المعتدون فى أبنائها وتركوا لها الحزن والدموع ولوعة الفراق .

وعاشت مع والدتها وأخيها الصغير تشاركهما الآلام والهموم . . واتخذت من نفسها سندًا للأم ومعينًا للأخ، وبعد تخرجها عينت فى هيئة قناة السويس تقديرًا لدور أخيها البطولى .

وأحست أنها المسئولة عن تلك الأسرة الصغيرة وعليها وحدها يقع العبء الأكبر فى تربية أخيها والوقوف بجوار أمها . . ومن هنا فرضت على نفسها قيودًا التزمت بها ونسيت أنها أنثى جميلة لها عواطف شأن كل فتاة فابتعدت عن كل ما يوقظ فيها أحاسيس الأنوثة ويجعلها تفكر فى الزواج رغم كثرة المعجبين . . وصدّت كل من يقترب منها ويحاول أن يخطب ودّها حتى عُرفت بين زملائها بالعزلة والانطواء وما يربطها بهم هو العمل فقط . . ونما هذا الشعور فى أعماقها حتى أحالها رجلاً فى ثياب امرأة .

وعاد جابر إلى منزله وصورة آمال تملأ كل وجدانه وتسيطر على أحاسيسه، وبينه وبين نفسه يلحّ عليه سؤال غريب : ما الذى يشدّه إلى آمال؟ وما السر الهائل الذى أيقظ فيه قلبًا ظل نائمًا لسنوات طويلة لا ينبض ولا يخفق؟!



صخرة الملتقى

تعـددت اللقـاءات بـين جابـر وآمـال . . بعضها بطريق الصدفة المفتعلة التى يعـدّها جابـر وتتقـبلـها آمـال برضـا ، وبعضـها بمواعيد فى العمل أو خارجه ، وكـثيرًا مـا التقـيا علـى شـاطئ البحر أمام صخرة جميلة نحتتها الطبيعة على هيئة قلب لتكون شاهدًا على حبهما .

واسـتيقظت فـى جابـر مشـاعر جديـدة لم يشعر بها من قبل . . أنسته ماضيًا كئيبًا عاشه من قبل .

وتمـردت عواطـف آمـال تـريد أن تـنطلق من هذا الأسر الذى قيّدها سنوات طوال عاشت فيه راهبة تقدم طقوس الطاعة والولاء لأسرتها البائسة .

عـالم جديـد ساحر عاشة جابر وآمال وخطوات عاشقة شهدها شاطئ البحر جيـئة وذهابـًا ، وآهات حلوة نبعت من قلبيهما بالقرب من الصخرة الجميلة . . صـخرة الملتقـى . . فـتذوب مـع النسيم لتعطر جوه . . وتمنى كلاهما لو أن هذا اللقـاء تم منذ وقت بعيد لجعل لحياتهما الجرداء طعمًا جديدًا ولونًا ورديًّا جميلاً . وتأكـد أن كـلاً منهما خُلق للآخر ولا يستطيع البعد عنه ، وراحا فى نشوة الحب يخططان لمستقبل حلو يرفرف عليهما بظلالـه .

ويغيب جابر فى عملـه بضعة أيام . . ولكن آمال لا تغيب عن عينيه . . يراها فـى أمـواج البحـر كإحدى عرائسه . . وبين آلات السفينة التى يعبر بها المضايق البحـرية مرشـدًا لـهـا . . وامتـزجت آمـال بكـل ذرّة فى وجدانه . . إنه لا يحلم بالإجازة إلا ليراها . . ولا يعود إلى عملـه إلا وصورتها فى قلبه وذهنه .

ولم تكـن هـذه العواطف الجياشة بعيدة عن آمال . . فحياتها الماضية قصة من

الحرمان والكفاح وترتيلة حزينة لأب ذاهب وأخ شهيد وأم ثكلى وشقيق صغير تتعثر خطاه فى مسيرة الحياة . . وتفزعها هذه الخواطر . . كيف تنفصل عنها وتستقل بنفسها تاركة الماضى لذكريات باهتة تستبقى الواقع منه فى أمها وشقيقها . . هذه سنّة الحياة ولا نستطيع الانفصال عنها .

ويضطرب تفكيرها قليلاً ولكن سرعان ما يعاودها الاطمئنان فقد أكد لها جابر أن أمها وشقيقها لا ينفصلان عنهما أبدًا . . وسيعيشون معهما وفى مكان واحد . . لقد رحلت أمه منذ قليل تحمل معها آلام السنين، وستصبح أمها العوض الطيب، ففيها سيجد الحنان الذى افتقده . وما أشبههما ببعض . . فكلاهما ذاق الثكل والترمل، وشظف الحياة ولوعة الفراق، والقيام بالمسئولية التى تنوء بحملها الجبال .

ويغيب جابر عن آمال مدة طويلة فى عمل متواصل . . ولكنهما على اتصال دائم ببعضهما عن طريق برج المراقبة، ويشتد بها الحنين وتكاد تطير من الفرحة حينما يخبرها بعودته فى إجازة قصيرة مساء اليوم ليراها .

وتتهادى إحدى السفن الضخمة بالقرب من الميناء وعليها المرشد جابر عبد الخالق، وتطلق صفارتها إيذانًا بالوصول، وتسمعها آمال كزغرودة حلوة طالما اشتاقت إليها . . وتلقى السفينة مرساها على مقربة من الشاطئ، ويأمر جابر بتوقف الآلات ويهبط مسرعًا ويركب اللنش الذى يقله إلى الشاطئ، وقلبه يكاد يسبقه وهو يثب بين ضلوعه، ومن على البعد يلمح آمال فى انتظاره ملوّحة له بيديها . . وبسرعة يتجه إليها فى لهفة وشوق فتلقى بيدها بين يديه . . تاركة لها الحديث الصامت الذى يعجز لسانها عن قوله . . ونظر كلاهما للآخر نظرة طويلة أودعاها كل ما يجيش فى قلبيهما من حب ولهفة . . ولولا كثرة الناس المحيطين بهما لألقت بجسدها بين يديه .

جذبها من يديها برفق . . وسارا يتجاذبان الحديث بعيداً عن أعين الناظرين . . وعاشا معًا فرحة اللقاء التى أنستهما حرمان البعد . . ولاحظت آمال الإرهاق الذى يبدو على جابر من كثرة العمل ومشقته . . فهو يواصل الليل بالنهار متنقلاً من سفينة لأخرى لايتخلله إلا فترات قصيرة من الراحة . . قالت له فى إشفاق : يجب أن تقضى هذه الإجازة فى النوم لتنال قسطًا من الراحة تعينك على مواصلة العمل بعد عودتك .

فردّ عليها ويدها لم تفارق يده كأنه يخشى عليها من خبيئة الأيام : إننى لا أجد الراحة إلا معك . . وهل يمكن أن يتسلل النوم إلى جفونى وأنت قريبة منى؟ إننى أراك فى اليقظة كما أراك فى النوم، وطيفك لا يفارقنى . . فإذا انصرفتُ عنك تسللَ طيفك إلىّ فى كل مكان أذهب إليه . . فلَنعش الواقع دون أن يؤرقنى الخيال . . وتبتسَم آمال ويسيران معا . . يستقبلان البَحر وأيديهما متشابكة . . نسيا الوقت ونسيا العالم كله فلم يَعُد فيه مكان إلا لهما . . فلم يعرفا كم مضى من الوقت حتى أوشكت الشمس على المغيب . . فجلسا قبالة الصخرة التى طالما التقيا بالقرب منها وكأنها تختزن فى قلبها قصة حبهما وتشهد عليه .

كانا كطفلين بريئين وجدا فى حبهما الآمل الذى ظلا يبحثان عنه . . وطال بينهما الحديث حتى انقضى جزء من الليل .

وحانت ساعة الفراق، فتركا المكان وعادا أدراجهما، وطيوف من الأحلام الوردية تعطر الجو الذى يعيشان فيه ويسبحان فى ظلاله .

انقضت إجازة جابر السريعة وعاد إلى عمله وسط ضجيج الآلات وتلاطم الأمواج والمخاطر التى تتربص به فى كل وقت، ولا يدرى إن كانت الموجة التى تلطم السفينة التى يقودها تحيّيها أو تنذرها . . فهى بساط ناعم أحيانًا . . وقبر يفتح فاه فى أكثر الأحايين .

ويعدّ جابر الأيام والساعات لتقبل الإجازة ويلتقى بآمال وينسى نفسه ويغسل متاعبه بين يديها ويشرب من عينيها نظرات تروى ظمأه . . إن فيهما عالمًا سحريًا ينقله إلى آفاق بعيدة لا يعرف لها نهاية . وواتته فرصة فذهب لزيارة شقيقه أحمد فى أحد المواقع البحرية فى سيناء . . كان متلهفًا لرؤيته . . فكلاهما غاب عن الآخر فترة ليست بالقصيرة، ولم يلتقيا منذ أن فارقت أمهما الحياة وأسدلا بعد وفاتها ستاراً كثيفًا على ماض مليء بالذكريات تتراء من خلاله أيام الطفولة والصبا والشباب . . ولم يبق لهما فى السويس غير شقيقتهما زينب تمثل جزءًا حبيبًا من رحم وقرابة كادت أحداث الزمان أن تأتى على ما بقى منه .

والتقى الشقيقان فبثّ كل منهما للآخر ما يكنّه فى صدره . . ولاحظ أحمد فى جابر مرحًا وانطلاقًا لم يعهدهما فيه من قبل . . وأحس أن لدى أخيه أمرًا يريد أن يطلعه عليه . . ولم يطل صمت جابر كثيراً . . فحدّثه عن آمال وحبه لها، وكيف التقى بها، وتصميمه على الزواج منها حيث لا يستطيع الحياة بعيدا عنها، ووصف له أخلاقها وصفاتها، وأعطاه صورة كاملة عنها .

فسعد أحمد لسعادة أخيه، واستحثه على المضى فى طريقه، ووعده بحضور زفافه حينما يحدد الموعد وستكون معه أخته زينب . . لقد كانت أمنا ـ رحمة الله ـ عليها تتمنى أن تتوج حياتهما بهذا الحادث السعيد ولكن الأجل لم يحقق لها ما تريد .

ولم ينسى جابر أن يقول لأخيه إن ظروف آمال تتشابه مع ظروفنا فى كثير من الأشياء . . فهى من أسرة مناضلة مات عائلها، واستشهد الأخ الأكبر فيها، وشقّت الأم بمفردها صعاب الحياة لتربى آمال وأخيها الصغير .

وكأن القدر يأبى إلا أن يجمعنا بمن على شاكلتنا فيربط حاضرنا بماضينا . . وقبل أن ينصرف جابر سأل أخاه فى دعابة تحمل معنى الجد : ومتى ستتزوج يا أحمد؟ ألم يحن الوقت بعد لتفعل مثلى ويكون لك بيت وأسرة؟ إن هذا سيرضى أمنا حتى وهى فى قبرها .

فرد أحمد فى بسمة ودود : حينما أجد الحبيبة التى تشد انتباهى وتملك مشاعرى كما فعلت بك آمال . . سأتزوج . . فحياتى الآن غير مستقرة ، وإجازتك أنت تقضيها فى الإسماعيلية ، أما إجازتى فأقضيها فى بحر الرمال فوق جبال سيناء انتقل من موج صاخب إلى موج ساكت ، ولا أجد بين الموجين من يثير فى قلبى دواعى الحياة .

إنى لا أجد وقتًا للحب ، وأتخيل أحداثًا خطيرة ستقع فى المستقبل القريب ، فكل الشواهد تؤكد أن إسرائيل تعدّ العدّة لحدث هام فى صمت وتحفز ، ونجحت فى أن تستدر عطف دول العالم ، وتظهر أمامهم فى صورة المغلوب على أمره والحمل الضعيف الذى يوشك الذئب العربى أن يفترسه . . إننا نرى هنا أكثر مما ترون أنتم هناك . . عد يا أخى إلى عملك واستعد للزفاف واستمتع بحياتك . . فلسنا نعرف ما سيأتى به الغد .

وودع جابر أخاه وأحلام عريضة ترف فى وجدانه فتجعل الدنيا أمامه وردًا وزهورًا وعطرًا .



غدر وخيانة

وتستيقظ مصر فى صبيحة يوم عابس من شهر يونيه عام ١٩٦٧م على صوت الـهـزيمة التى لم تستطيع أن تتبينـها وتستوعبها إلا بعد فترة من الوقت . . فقد كـان دوى القـنابل يصـرخ فى كل مكان ، والطائرات المصرية دفنت فى مواقعها ولم تتح لـها الفرصة لتقف على قدميها فى مواجهة العدو بينما وسائل الإعلام تذيـع أنـباء وأخـبارا ظاهـرها يـتحدث عـن النصـر والظفر وباطنها فيه الـهزيمة والعذاب .

وفوجئ الشعب بالقوات الإسرائيلية تقف على الشاطئ الشرقى للقناة بعد أن سبقتهم البقية المذعورة من فلول جنود الجيش المصرى المنهزم فى سينا ء .

وشـهـدت المنطقة ما بين العريش وضفاف القناة معارك شرسة استعملت فيها إسـرائيل كـل ألوان الأسلحة التى تملكها أو تريد أن تجربها ، وظهرت وحشيتها فـى أقـبح صـورة يمكن أن يتخيلـها بشر . . فبعد ضربها المفاجئ للمطارات فى مـواقعها المخـتلفة ، وتـدمير الطائـرات فى مرابضها ، زحفت قواتها إلى الغرب وهى مطمئنة على نفسها من هجمات الطيران المصرى الذى أمنت جانبه .

ودخلت العريش بعد معركة شرسة فأجأت فيها الحامية المصرية التى لم يخطر ببـالـها مـثل هـذا الـهجوم المباغت ، فما معها من سلاح وعتاد قليل ضعيف لا يصمد أمام هجمات العدو .

وحـدثت فى صحراء سيناء وقائع يشيب من هولـها الوليد . . ففى كل مكان تنـزل فـيه القـوات الإسـرائيلية تحـرق وتدمر ولا تبقى على شىء . . حى كانت تجمـع الجنود المصريين الذين استسلموا بعد نفاد ذخيرتهم ورفعوا الراية البيضاء

وينتظرون أن يعاملوا كأسرى حرب وفقًا للقوانين الدولية المتفق عليها . . تجمعهم وتوقفهم صفوفًا متراصة وتطلق عليهم النيران فتقضى عليهم جميعًا وتتركهم فى العراء نهبًا للوحوش دون أن تواريهم تحت الرمال . . بل قد بلغ من قسوتها أنها تأمر الجنود المصريين بالنوم على الأرض وتمر عليهم بالعربات المجنزرة فتمزق أجسادهم شر ممزق فتمتزج بالرمال لتتحول شيئًا واحدًا لا يستطيع الإنسان أن يتبين فيه جزءًا محددًا من أجساد هؤلاء البشر . . وما أكثر ما ربطوا رقابهم بخيوط من السلك، وشدوها إلى أقصى درجة ممكنة ثم تركوهم يعانون الموت البطيء .

لقد تفننوا فى شتى ألوان الوحشية والجبروت . . كأنهم يثأرون لكراهية الدنيا لهم، وصبّوا هذا الثأر على أبناء الشعب المصرى .

وامتلأت صحراء سيناء بالدبابات المحترقة، والعربات المحطمة، والأشلاء الممزقة هنا وهناك . . وأصبحت رمال سيناء قبرًا مفتوحًا يتناثر فوق أديمها أعز أبناء مصر وأكثرهم بطولة وتضحية . . بل إن الرمال كانت أكثر رحمة من هؤلاء، فزحفت عليهم بفعل الرياح والعواصف ودارتهم تحت غطائها ضنًّا بهم من وحوش الليل الضالة .

حتى الخراف والماعز والنباتات لم تسلم من أذاهم فصبوّا جامَ حقدهم على الحيوان كما صبوه على الإنسان . . ولم يتركوا حظيرة للماشية إلا أحرقوها بكل ما فيها . . حتى الوديان الجميلة بزروعها المثمرة الخضراء رموها بقذائف اللهب فأحالوها فحمًا أسود . . وجعلوا كل شيء تحت أقدامهم خرابًا . . فهدفهم التدمير والهلاك لكل من عداهم .

ودافع أبناء سيناء عن أرضهم دفاع الأبطال . . وشاركوا جنود الوادى فى

جميع المعارك الدائرة . . فلم يتخلوا عن شبر واحد إلا بالحديد والنار تاركين فوقه أعظم شاهد على بطولتهم . . دماؤهم وأشلاؤهم .

وحينما يسكن الليل وتهجع الشراذم المفترسة استعداداً لوثبة غادرة فى صبيحة اليوم التالى ، يسعدون فيها برؤية العذل والأبرياء والرصاص يحصدهم والدبابات تطحنهم والدماء تتدفق هنا وهناك فتثير فيهم النشوة المجنونة المتعطشة إلى كل شيء سيئ وقبيح . . فى هذا الوقت تتسلل جماعات من البدو نحو ساحات المعارك تبحث عن جريح تداويه ، أو قتيل بقى منه شيء تواريه جوف الرمال ، أو متاع مبعثر هنا أو هناك تستولى عليه . . وما أكثر ما ترك الشهداء خلفهم على صفحات الرمال من أشياء تبدو فى مظهرها تافهة لا تشد النظر وهى فى وجودها ذكريات غالية تضم آمالاً عريضة طوتها الرمال .

فهناك قصاصات من رسائل تحمل قصة حب من حبيبة ، أو لوعة فراق من والدة ، أو لهفة بُعد من صديق ، أو نصيحة أو توجيه من أب شجاع صبور ، وغير بعيد منها تمائم وآيات من القرآن الكريم أهديت لأصحابها للذكرى ، لم يُبق منها الطغيان إلا قطعًا باهتة تلوثها الدماء .

وعلى مقربة من شاطئ العريش وجد بعض البدو جريحًا بترت ساقه والدماء تنزف منه بغزارة وهو فى غيبوبة لا يدرى بمن حوله ، وتفحصه الرجال فوجدوه شابًا فى مقتبل العمر وسيم المنظر قوى البنية يبدو من بعض ملابسه أنه من رجال البحرية المصرية . . وحمل الرجال الجريح إلى منزلهم فهو لا يبعد كثيرا عن هذا المكان آملين فى شفائه .

ويعمل هؤلاء الرجال فى مخبز يملكونه . . فما وصلوا إلى هناك أضجعوه فى مكان بالداخل ونظفوا جرحه وكووا مكان البتر ووضعوا عليه بعض الزيت

حتى يوقفوا النزيف . . إنهم يستغلون طبّهم البسيط الذى ورثوه عن آبائهم وأجدادهم فى علاج أمراضهم وجروحهم . . وتعهدوه بالرعاية والعلاج حتى تقدمت صحته بعض الشيء . . وأخفوا مكان وجوده عن الدوريات الإسرائيلية التى تمر صباح مساء تبحث عن الناجين أو الجرحى من أبناء مصر لتقضى عليهم فلا ترحم مريضًا أو تشفق على جريح ، أو تترك هاربًا .

وأمام نيران الفرن المتوهجة يتذكر الجريح ما حدث له ويستعيد اللحظات القاسية التى مرت به كأنها يوم الهول .

ولم يسأله أحد من الرجال عمن يكون بل احترموا صمته وتركوا له حرية التعبير عن حياته عندما يريد .

ومرت الأيام بطيئة يدفع بعضها بعضًا ، وصحته فى تقدم مستمر ، وشيئًا فشيئًا بدأ لسانه ينطلق ويفصح عما بداخله ، وأصبحت حياته كتابًا مفتوحًا قرأ فيه أصحاب المخبز كل شيء عنه .

عرفوا أن اسمه أحمد عبد الخالق ويعمل مرشدًا فى البحرية المصرية بالعريش . . ووالده الصول عبد الخالق أحد الأبطال الذى استشهد فى معارك ١٩٥٦م . . وقبره غير بعيد من هنا ، وبعض سكان العريش يعرفونه . . وله أخ شهيد فى بورسعيد وأخوه الثالث جابر يعمل بهيئة قناة السويس بالإسماعيلية . ولاشك أنه بحث عنه وتأكد أنه من الشهداء أو المفقودين ، ويودّ أن يجد وسيلة تتيح له الاتصال بأخيه ليعرف حقيقة مكانه ويهيئ له وسيلة استكمال علاجه .

كما أنه لا يعرف كيف نجا من الموت . . فبعد عودته من العمل طيلة الليل فوجئ فى صبيحة اليوم بالقوات الإسرائيلية تهاجم مسكنهم وهم نيام . . بعد أن دكت المطارات والمعسكرات وسفن التدريب ، وأمطرتهم وابلاً من الرصاص

وقـتلت معظم زملائه وهم نيام كما تفعل عصابات اللصوص . . وتمكن هو من الـهـبوط أسـفل المنزل مع آخرين ولكن القوة التى تقف أمام المنزل لم تترك لـهم فرصـة الـنجاة . . فلم يشعر إلا ونيران المدافع الرشاشة تلـهب جسده وساقه . . وغـاب عـن وعيه حتى ساقهم الله إليه فأنقذوه من موت محقق . . فالإسرائيليون ظـنوه ميتًا . . ولو وجدوه يتحرك ما تركوه حيًا . . فلم يتركوا أحدًا ممن كان معه على قيد الحياة . . دون تفرقة بين مدنى وعسكرى وكبير وصغير .

وتـذرف الدموع من عينى أحمد وهو يستعرض فى مخيلته توقعه لما حدث وأنه كـان مـتأكدًا أن إسـرائيل تنسـج خـيوط الغـدر والخديعة حتى نقع فى حبائلـها ونجحـت فـيما أرادت . . لغفلـة منا أو استهانة بالواقع الذى يحيط بنا . . وأفلح الـروس أيضًـا فـى خداعـنا ليصرفوا أبصارنا عن قوة إسرائيل ، ويوهمونا كذبًا بقوتـنا الوحـيدة الضـاربة فـى الشرق الأوسط . . فلم تكن لدينا الطائرات التى تـواجه الطـيران الإسـرائيلى ، ولا القـوة المدربة التى تقف أمامه ، ووضعنا على أعينـنا غطـاء من الغرور استحال هباء تذروه الرياح عند أول عاصفة هبت علينا فألقت بنا فى مكان سحيق .

وتصـطك أسـنانه غـيظًا ، ويتمنـى لو يعود الماضى ليصرخ فى رؤسائه بأعلى صوت محذرًا إياهم من الخطر الذى يقترب منهم وهم عنه غافلون .

وينقل أصحاب المخبز أحمد إلى مستشفى العريش تحت اسم مستعار اصطعنوه لـه ليبعدوا عنه خطر اليهود حتى يكمل علاجه فيه .

ويقـيم فى المستشفى عدة أيام إلى أن تأتى لجنة طبية من الصليب الأحمر الدولى فـتقابل الجرحـى والمصـابين لتـتفقد أحـوالـهم ، ويطلب منهم أحمد أن ينقل إلى إحـدى المستشـفيات فـى السويس أو الإسماعيلية لإتمام علاجه . . فهو مواطن

مصـرى ولـم يكـن مـن بين المحاربين . . ومن حقه أن يعامل كأسرى الحرب من المدنيين . . حيث لا يتوفر الأسلوب الصحيح لعلاجه هنا .

وبعـد مفاوضـات مضـنية ومـراوغات مـن الـيهود استمرت وقتا نقل بعض الجرحـى والمرضـى إلى مستشـفى السـويس بمبادلتهم بجرحى وأسرى من اليهود لدى الجانب المصرى .

وكان أحمد من بين المنقولين إلى السويس باسمه المستعار الذى لا يعرفه به أحد إلا أنه مواطن مصرى أصيب فى العريش أثناء عملـه . . وافصح أحمد عن اسمه الحقيقـى للمسـئولين فـى المستشـفى وعـن طبيعة دوره لـدى القـوات البحـرية المصـرية . . فهو رجل عسكرى أصيب فى عملـه أثناء الحرب ولقى العناية التى يستحقها أمثالـه .

وبحـث جابـر عن أخيه فى الأماكن التى يتوقع وجوده فيها أو استشهاده على أرضـها . . وفـى كـل مـرة يعـود بـالألم والخيبة . . فلا هو بين الشهداء ولا بين الأسـرى . . وعـاش شـهورا عصيبة حزنًا على أخيه وعلى أسرته التى شاء لـها القـدر أن يكـتب معظـم أفـرادها سطور البطولة والتضحية فى سبيل الوطن . . فـوالدهم هـو الـرائد الأول فـى طـريق النضـال، وبدمـه سـجل صفحة مشرقة للأبطـال المناضـلين . واستشـهاد أخـيه حسين فى ملحمة بورسعيد الباسلة ليس عـنه ببعـيد . ووالدتـه شـهيدة الصـبر والكفاح أكملت مسيرة إعداد هذه الكتيبة الصـغيرة مـن أبـنائها لتأخذ موقعها فى المسيرة العظيمة التى سلكها والدهم من قـبل . . وها هو أخوه الثانى فى خضم المعارك لا يعرف عنه شيئًا . . وكأنما قدّر لـــه أن يعـيش وحـيدًا فـى درب الحـياة الطـويل وينتظر الدور الذى أُعدّ لـه . . فالمعركة قد بدأت . . وخطواتها شاقة ومؤلمة . . ولـهيب الحرب اشتعل وسوف يصـطلى بـه الكـثير والكـثير . . ولا يعلـم إلا الله إلى أيـن تمتدّ ألسنته . . ومادام

شعارنا الآن هو: ما أخذ بالقوة لا يسترد إلا بالقوة. . فلنسلح أنفسنا بهذه القوة ونخوض غمار معركة معروفة البداية ولكنها مجهولة النهاية.

وحاولت آمال بكل ما لديها من طاقات الحب أن تخفف شجونه وتبعد عنه شبح الحزن الكئيب الذى تسلل إلى قلبه. . وتستثير فيه مشاعر الإيمان والوطنية والاستسلام لقضاء الله وقدره. . وأفاضت عليه من حبها وحنانها ما هوّن عليه بعض الآلام، ودائمًا تذكره بأنهما صنوا جهاد. . وكأن القدر أعدّ لهما طريقًا واحدًا يسلكانه معًا. . وما أقرب الشبه بين أسرتيهما. . فكلاهما من أسرة مناضلة استشهد معظم أفرادها فى سبيل الوطن. . وحملت الأم أعباء الكفاح من بعدهم لتشق الطريق الصعب وتكمل المسيرة المضنية.

وأفلحت شافية الحب الساحرة أن تعالج بعض جراحه، وتسلمه إلى حالة من السكون. . لا يستبين من خلاله فرح أو حزن، أو يتراءى فى ظله يأس أو قنوط. . وسارت حياته الرتيبة على خط واحد لم يتغير. . يغيب أياما فى عمله يرشد السفن ويخرجها إلى بر الأمان ويعود فى إجازة قصيرة يقضيها بين يدى آمال فتعطيه من حبها لمسات دافئة تنسيه آلامه. . وتحببه فى الحياة وتدفعه إلى التمسك بها وعدم اليأس. . إنه كغصن ذابل امتصت رحيقه الأحزان فسكبت فيه آمال قطرات الندى فى الفجر الوليد فاخضرت جوانبه وانتعشت فيه الحياة.

وسعدت آمال بهذا التطور فى حياة جابر، واطمأنت إلى مكانتها فى قلبه. . فغدًا أو بعد تلتئم الجراح وتسير بهما الحياة، فالزمن لا يتوقف أبدًا مهما أظلم الطريق وأحاطت به الأعاصير.

وبينما جابر يقود إحدى السفن ليخرج بها من مكان الخطر، وضجيج

الآلات يكاد يصمّ أذنيه، وسحب سوداء تلبد جو الأفق، والأمواج العالية تلطم جوانب السفينة فى غضب وعنف، فيشيع كل هذا فى نفسه شعوراً بالكآبة والحزن، إذا به يسمع عبر الهاتف اللاسلكى صوتًا يناديه لم يُعره التفاتًا فى أول الأمر؛ لأن التوجيهات والتعليمات تنطلق طيلة عمله من الإدارة المركزية مما يجعل النداء شيئًا مألوفًا لديه يسمعه هو أو ينقل إليه، فيؤدى ما يطلب منه بتعديل مسار سفينته أو الانتقال إلى سفينة أخرى.

ولكن الصوت هذه المرة هزّ وجدانه فقد سمعه بقلبه قبل أن تلتقطه أذناه.. إنه صوت آمال تناديه وتلحّ فى طلبه ويجيبها متسائلاً عن سبب طلبه فى هذا الوقت الذى أثار فيه كثيراً من دواعى القلق والخوف.. وتجيبه آمال بصوت ضاحك فيه نغمة فرح ورنة بشرى: أتعرف لماذا طلبتك؟ إن أخاك أحمد حى لم يمت.. وقد نُقل بالأمس إلى مستشفى السويس عن طريق هيئة الصليب الأحمر، وأبلغتنا إدارة المستشفى برغبته الملحة فى لقائك فهو يعرف مكان عملك ويريدك أن تسارع بالذهاب إليه.. وقد طلبتُ لك إجازة لمدة يومين ابتداءً من صباح الغد وسأكون فى انتظارك على رصيف الميناء لنسافر سويًّا لمقابلته.

وانتهى حديث آمال ولم ينته وقع الخبر على نفسه.. فشعر بالسعادة تغمر جسده وقلبه، ودبت فيه روح جديدة، فخيل إليه أنه يرى أباه وأمه وأخاه حسين وقد بعثوا أمامه من جديد، ولم يعد وحيداً فى هذه الدنيا.. وعاودته ذكريات صباه مع أحمد وهما طفلان يلعبان معًا ويدرجان نحو الشباب حتى وصلا إلى نهاية تعليمهما فتفرقت بهما السبل.. إلا أنه لم يبتعد بقلبه عن أحمد أبداً.. فهو قريب منه فى كل شيء يلتقى به ويزوره كلما سنحت له الفرصة.. حتى قام العدو بضربته الغادرة فلم يعرف له مكانًا، وكاد يفقد الأمل فى لقائه لولا بصيص ضئيل فى إمكان العثور عليه يتراءى له حينًا ويختفى من أمامه فى أكثر الأحيان.

مـرت هـذه الخواطـر أمامـه فـى سـرعة كشريط يشاهد على صفحاته ذكرى سـنوات حلـوة انقضـت ولـم يـبق منه إلا أصداء ضعيفة تعاوده بين وقت وآخر فتربطه بالماضى حتى لا ينقطع عنه إلى الأبد . . ونظر أمامه فإذا السحب السوداء الداكـنة تتـبدل أمـام عينـيه على حرير شفاف يزين أطراف السماء . . وأصوات الـرعد تـرانيم جميلة أخاذة . . وومضات البرق اقتباس من نور يضىء الظلام . . والأمواج التى تلطم السفينة أياد ناعمة تصافح وتلمس وتداعب .

وفى صبيحة اليوم التالى نزل إلى الشاطئ فوجد آمال تنتظره فى لـهفة وشوق ، فتشـابكت أيـديهما فـى حـب جـارف صـامت معبّـرة عـن مشـاعر كـل منهما للآخـر . . وتـركا العنان لعينيهما تسبحان فى بحر من الوجد ليس لـه شاطئ أو قـرار . . وسارا متلاصقين بعيداً عن أعين الناس . . فالفرحة التى فى قلب جابر لـو فاضـت ما سمعتها الدنيا . . وآمال تشاركه فرحته . . وتوقفا على مقربة من صـخرة الملتقـى حيث نما حبهما وترعرع . . وتمنيا لو أن الحياة توقفت بهما عند هذا الحد فلم تتقدم أو تتأخر . وأفاق من سكرة الحب على صوت يتردد من بعيد فتـباعد جسـدهما وإن ظـل اللهـيب مشـتعلاً بينهما . . وسارا حتى أشرفا على نهاية الطريق وافترقا على أن يلتقيا بعد وقت قصير للذهاب إلى السويس .

سافر جابر وآمال إلى السويس واتجها مباشرة إلى المستشفى الذى يعالج فيه أحمد . . وكان لقاء أخويًّا تجلّت فيه صلة الرحم بأجمل معانيها وطفرت من عينيهما الدموع التى تعبر عن الفرح والحزن فى وقت واحد . . فرح اللقاء وحزن الإصابة التى ابتلى بها أحمد فتركت أثرًا شاحبًا على وجهه ومسحة حزينة من الألم فى أعماقه وإن لم تفقده صبره ورجولته . وحاولت آمال أن تخفف عنه بالحديث والدعابة وأقبلت عليه فى مرح أنساه بعض ما يجد . . وليست آمال غريبة عليه . . حيث قابلها عدة مرات مع أخيه فى الإسماعيلية حين يذهب لزيارته . . ومرة أو مرتين فى العريش فى بعض أسفارها له . . وأعجب بها كثيرًا ففيها تلتقى صفات جميلة تقربها من القلب، بل إنه غبط أخاه على حبه لها . . وجالسها فلمس فيها حسنًا يسدّ النظر وذكاء يستميل الفكر . . وفى لحظات خاطفة عابرة تمنى لو كانت له . . أو وجد مثيلاً لها . . فحياته مقفرة فى حاجة لمن يروى ظمأها ويعيد إليها الحياة .

وصمم جابر على أن ينقل أحمد إلى مستشفى الإسماعيلية ليكون تحت إشرافه ويراه فى أى وقت يريد .

واستجابت إدارة المستشفى لطلبه وقررت نقله إلى الإسماعيلية ليكمل علاجه هناك . . وفى المساء انطلقت سيارة عسكرية تحملهم إلى الإسماعيلية . . حيث أدخل المستشفى العسكرى .

واطمأن جابر على قرب أخيه منه . . وقضى معه بقية الليل ثم عاد إلى منزله ليستعد للذهاب إلى عمله بعد أوصل آمال إلى بيتها . . وأقام أحمد فى المستشفى

مدة شهرين . . تقدمت فيها صحته والتأمت جراحه وعادت إليه البسمة المشرقة . . ولم تنقطع آمال عن زيارته أبدًا بصحبة جابر عند وجوده، أو بمفردها حين يكون غائبًا . . وأحيانًا ترافقها منى وهى شابة زميلتها فى العمل فى مثل سنها . . تتسم بالجمال والهدوء، وعرفت أحمد فى زياراته للإسماعيلية من قبل كما عرفته آمال وربطت بينهما أواصر العمل وقربها القوى من آمال وجابر، ولم تبخل عليه بالمودة والتعاطف لإحساسها بحاجته إليهما . . وزارته بمفردها فى بعض الأوقات التى يكون فيها جابر أو آمال غير قادرين على الزيارة . . وأنكرت على نفسها فى أول الأمر هذه الزيارة ولكن شيئًا خفيًا يدفعها إلى هذه الزيارة بل وإلى تكرارها وإطالتها، وتحسّ بالوحشة حين تغيب عنها، واقتنعت بأنها مشاعر لا تتجاوز العطف على شاب فى مقتبل العمر بترت ساقه وكاد يفقد الحياة.

ورُكّبت لأحمد ساق صناعية وبدأ يدرب نفسه على السير بها فى حديقة المستشفى متوكئًا على عصا أعطيت له . . ويومًا بعد يوم أخذ يألف الواقع الجديد . . راضيًا بقضاء الله وقدره فى نهاية المطاف . . مستسلمًا للحكمة.

ونجح جابر فى أن يعيده إلى العمل فى هيئة الإشراف والتوجيه فى برج المراقبة بالإسماعيلية . . واعتبر كلاهما هذا القرار نصرًا كبيرًا فهو لم يفقد عمله من ناحية واستقر به المقام بجوار أخيه من ناحية أخرى. وسيصبح هو صاحب الصوت الذى يسمعه فى السفن التى يوجهها . . يرشدها أو يستدعيها أو يلقى إليها ما يريد، حتى الإجازات صارت من اختصاصه يمنحها أو يمنعها فى الظروف والأوقات المناسبة.

ويغيب جابر فترات طويلة عن أخيه يعوضها وجود آمال ومنى بجواره . . وحرب الاستنزاف المريرة اشتدت مع العدو وتشابكت خيوطها . . وأحس

الشعب المصرى بوطأة الهزيمة وأن كل جندى إسرائيلى يقف على الضفة الشرقية للقناة إنما هو سهم مغروس فى صدره لابد من انتزاعه مهما كانت التضحيات . . ولم يكن جابر دون غيره من الشباب ؛ فهو بحكم عمله وخبرته منوط به مهمات كثيرة عليه أن يقوم بها وينفذها بدقة وسرية ، ومن أهمها نقل الفدائيين والأسلحة إلى مواقع العدو بحيث لا يشعرون بها أو يشعر بوجودها مَن معه فى السفينة ، ويتطلب منه هذا العمل الحرص والحذر والسير عبر ممرات بحرية خطرة تعترضها الصخور والعوائق ، وهناك يجد بعض المراكب الصغيرة متناثرة بالقرب منه تبيع وتشترى من السفن الكبيرة فينزل إليها الرجال والسلاح على صورة باعة يتبادلون السلع مع ركاب السفينة . . وهذا العمل الخطر يستدعى غيابه أيامًا طويلة لا يتمكن فيها من التقاط أنفاسه فى إجازة ولو قصيرة . . ويسمع أحمد وهو فى المستشفى أخبار معارك الاستنزاف على طول جبهة القناة وفى عمق سيناء . . وتحدثه آمال عن البطولات والتضحيات التى يقوم بها الفدائيون من رجال القوات المسلحة ومن غيرهم .

ولضمان سرية العمل الفدائى ونجاحه يأمر الرئيس عبد الناصر بوضع كافة الإمكانات المتاحة تحت تصرف قيادة حرب الاستنزاف التى جعلت العدو لا يطمئن فى موقعه أو يحسّ بالراحة أو الاستقرار ، وأن الخطر يحيط به فى كل خطوة يخطوها ، وقبورهم مفتوحة تحت أقدامهم .

وتبدى آمال إعجابها بأعمال الفدائيين ، وتحدثه عن بعض ما سمعت . . فهذه مجموعة فدائية تنكرت فى ثياب الصيادين وعبرت القناة وانتشر أفرادها بالقرب من المواقع الحصينة للعدو وزرعوا فيها الألغام والمتفجرات . . وعند ساعة الصفر تحولت هذه المواقع إلى جحيم . . ولم يَدْرِ العدو من أين جاءته الكارثة . . أمن خلفهم أم مِن تحت أقدامهم !

وتتسلل مجموعات أخرى من أقصى الشمال ومن أقصى الجنوب حتى وصلت إلى تجمعات العدو سابحة فى الماء ومتخذة من الظلام ستاراً، وتتربص الفرصة السانحة فتنسف حاملات الجنود والمدرعات فى سرعة خاطفة . . وقبل أن يفيق العدو من ذهوله يتوارى الفدائيون كأنما ابتلعتهم الأرض . . حيث درسوا دروب سيناء وعرفوا مسالكها الصعبة وجبالها الوعرة التى تمكنهم من الهرب والتخفى، ويذوبون فى تجمعات البدو من سكان سيناء فلا يستطيع أحد أن يميز بعضهم عن بعض . وفى أحد الأيام زاره شاب من جيرانه القدامى فى السويس حينما علم بسفره إلى الإسماعيلية . . ودار بينهما حديث طويل عن ذكريات الماضى وملاعب الصبا فى شوارع السويس وأنديتها . . كانوا يعيشون ليومهم ولا يفكرون فى الغد، والدنيا عنهم غافلة . . تظلهم البساطة والبراءة، وتحوطهم رعاية أسرتيهما بالحب والحنان . . ولكن الحياة لا تبقى على حال . . فالشمل تَفرّق، والآباء رحلوا، ولم يبق لنا غير ذكريات نسمع صداها فى أعماقنا فتثير فينا الحنين والشجن . . وسأله أحمد عن أخويه محمود وسيد فسكت الجار قليلاً . . وتساقطت قطرات ساخنة من الدموع فوق وجنتيه ثم قال : لقد انضممنا إلى صفوف المناضلين فى حرب الاستنزاف، وتوغلنا خلف خطوط العدو أكثر من مرة وأحدثنا بهم إصابات بالغة، ونمنا ليالى عديدة فى العراء حتى نفد ما معنا من طعام فاصطدنا الثعابين والسحالى واتخذناها طعاماً نقتات منه . وفى إحدى الأمسيات شاهدنا دبابتين وعربة مليئة بجنود العدو تقترب منا، وبسرعة ارتدى قائد المجموعة حزاماً من الديناميت ونادى : مَنْ يشاركنى فى الشهادة؟ فأسرع أخى محمود ومتطوع آخر ففعلا مثله، وأمرَنا القائد بالعودة إلى مقر قيادتنا بعد انتهاء العملية . وبسرعة انساب ثلاثتهم كشياطين الليل يخفيهم الظلام ويداريهم عن العيون حتى أصبح كل منهم أسفل

الـهـدف الذى حدده لنفسه . وسمعنا انفجاراً مروعًا هزّ المنطقة كلـها . . توالت بعـده عـدة انفجارات . . وبعد فترة تقدمنا إلى الموقع فم نجد إلا أجزاء من حديد متناثر وأشلاء من جثث مبعثرة هنا وهناك وقد اختلط بعضها ببعض . . لم نتبين فـيها رجالـنا من رجالـهم واستشهد أخى مع زميليه . . وبقدر ما استطعنا وارينا بعضهم الرمال . . وعدنا أدراجنا سريعًا قبل وصول بقية القوات الإسرائيلية لأن الـذخيرة التـى معـنا نفـدت عـن آخـرها . . وظللـنا نحـبو على بطوننا وطلقات الرصـاص الطائشـة تطاردنـا حتـى تمكـنا مـن الوصول إلى شاطئ القناة . فعبرنا سباحة إلى الضفة الأخرى .

ووجـدت أخـى سـيد مصـابًا فـى ذراعـه وكـذلك بعض رجالنا فنقلتهم إلى مستشـفى السـويس ، وعـرفت بوجـودك مصـابًا فيها وانتقالك إلى الإسماعيلية لاستكمال علاجك بناء على رغبة أخيك حتى تكون قريبًا منه .

واسـتيقظ أحمـد فـى الـيوم الـتالى علـى صوت أخيه جابر وهو مقبل عليه فى سـعادة وفـرح يهنـئه بـتمام شـفائه وبقرب خروجه من المستشفى ، وأنه سيمنح إجـازة قصـيرة للاسـتجمام والـراحة ثـم يتسـلم بعـدها عملـه فـى هيئة القناة بالإسماعيلية .

وأقـبلت آمـال ومنـى بعـد فـترة قصـيرة وتجاذب الجميع أطراف الحديث عن معـارك الاسـتنزاف والـبطولات الرائعة التى يسجلـها الفدائيون كل يوم وكيف أزعجـت العدو فجعلت وجوده قلقًا مستمراً وعذاب دائمًا ، فلا يدرون من أين يأتـيهم المـوت ، وأيقـنوا أن وجودهم فى سيناء لن يدوم طويلاً . . فالأرض من تحتهم تهتز وإن لم يبادروا بالانسحاب ستبتلعهم وتصبح قبراً لـهم .

وقال جابر : إن القوات المصرية بجميع أسلحتها استعادت نشاطها وثقتها فى

نفسها . . وعُهد إلى بعض القادة العظام بإعادة تنظيمه وحسن تدريبه . . وعوض الجيش معظم الأسلحة التى فقدها من البلدان الصديقة . . وحينما يستكمل استعداده، ستكون معركة النصر . . إن أكثر من مليون شاب ـ كما سمعت ـ ينوى الرئيس عبد الناصر تجنيدهم ليكونوا على استعداد ليوم الثأر والخلاص . . ومن موقعى فى العمل أدركت تفوق القوات البحرية وقوة استعدادها . . لقد قام رجالها بأعمال رائعة لم يكشف النقاب عنها بعد، وحين تعلن ستكون مفخرة لمصر كلها . . حيث كانت سببًا فى حماية مصر من الغزو البحرى الإسرائيلى . . وجعلت العدو لا يفكر مطلقًا فى الاقتراب من الشواطئ المصرية .

وهمس قائلاً : لقد علمت أن زوارق الطوربيد أغرقت منذ يومين الغواصة الإسرائيلية داكار بالقرب من شواطئ الإسكندرية . . وهى غواصة حديثة صنعت فى بعض البلاد الأوربية لحساب إسرائيل، وقد زودت بتجهيزات خاصة ومتطورة وسلمت لإسرائيل منذ شهور قليلة، ورصدتها البحرية المصرية تتسلل نحو شاطئ الإسكندرية فى مهمة غامضة . . فى الوقت الذى كان فيه الرئيس عبد الناصر موجودًا بها . . وصدرت الأوامر من الرئيس شخصيًا بالتعامل معها . . فخرجت إليها بعض زوارق الطوربيد السريعة وضربتها بقنابل الأعماق . . وسجلت المراصد انفجارًا مروعًا فى أعماق البحر . . وفى اليوم التالى شوهدت بقعة كبيرة من الزيت تطفو على سطح البحر فى الموقع الذى كانت فيه الغواصة .

ومن الغريب أن إسرائيل تجاهلت هذا الموضوع تمامًا ولم تعلن عن فقد شيء من أسلحتها وكأن شيئًا لم يكن . . لأنه لم يظهر أدنى أثر للغواصة بمن فيها . . وتمكن بعض الغواصين المصريين من مشاهدتها غريقة فى عمق بعيد . . كما أن

إسـرائيل لا تريد زعزعة الروح المعنوية لدى جنودها . . فقبل هذا الحادث بقليل تم إغراق المدمرة الأسطورية إيلات وبعض السفن والزوارق الحربية الصغيرة .

وكـاد أحمـد أن يقفـز من فوق سريره سرورًا بتلك الأعمال الرائعة التى تؤكد أنـنا شـعب لـن ينام على ظلم أو يستكين وجزء من أرضه مسلوب . . وتمنى لو كان سليمًا ونال بعض هذا الشرف .

وهـدأ جابـر من ثورته قائلاً : لقد أديتَ واجبك يا أخى على أكمل وجه ولم تـبخل بشيء فى سبيل وطنك . . ولقد قدمنا من قبل أبانا وأخانا ، ومازلنا على الطـريق أنا وأنت . . ولن يكون عملك بعيدًا عن مواقع القتال أقل بطولة مما هم فـيه . . فالمعـركة فـى حاجـة إلى تضـافر الجمـيع وتشـابكهم . . وبهـذا يـتحقق النصـر . . ونستأذنك الآن فى العودة لنكون فى استقبالك بعد أيام قليلة بيننا فى مكانك الجديد .

سر خفى

وأشرق صباح جديد على مدينة الإسماعيلية إحدى مدن القناة المدافعة والتى تقع فى الخط الأول للمواجهة العسكرية، ومكاتب الموظفين فى هيئة قناة السويس تموج بالحركة والعمل، وكلٌّ يعرف دوره تماما فى هذه الظروف العصيبة التى يمر بها الوطن. . فالعدو يعربد على الضفة الشرقية للقنال، والقوات الفدائية تكيل له الضربات. . وفى برج المراقبة يقف المرشدون يوجهون السفن ويستقبلون منها المكالمات. . وبينهم أحمد عبدالخالق المرشد الجديد يعمل بجدٍ وتفان كما هو معروف عنه لا تعوقه ساقه المبتورة ولا تقلل من عزيمته عصاه التى يتوكأ عليها. . حيث لم يعد صالحًا للعمل فوق السفن ينتقل من واحدة لأخرى، فاستعاض عن هذا بالتوجيه الأرضى لخبرته القوية فى هذا الميدان. . وقد وجد من زملائه حبًّا وتشجيعًا أعانه على إجادة عمله. . وفى لحظة هدوء سكنت فيها حركة السفن جلس ساهمًا مفكرًا. . فلم يستطع العمل الجديد وحفاوة العاملين به أن يُنسوه واقعه أو يسدلوا ستارًا كثيفًا على ماضيه. . فواقعه يؤكد أنه إنسان معوق يجامله الآخرون ويعطفون عليه، وهو لا يزيد فى نظرهم عن رجل بساق صناعية لا يستطيع أن يتماسك لو ترك عصاه. . وماضيه المشرق حينما كان يقود السفن العملاقة فى قدرة تامة وعزم قوى لا يبالى بخطر أو يصده هول أو فزع. . كان له منصب ومكانه يحسده عليها الآخرون. . أما الآن فلم يبق له من ذلك شيء. . وتسيطر هذه الأفكار على نفسه فتحيل حياته اكتئابًا وظلمة. . تجعله أقرب إلى آلة تعمل ليس فيها أمل أو تفاؤل أو حياة.

وينتبه من غفوته الحزينة على صوت آمال تقترب منه طالبة نقل برقية إلى

إحدى السفن . . وكغريق نجا أعادته إلى هدوئه، فحدثها قليلاً وعادت إلى عملها فى مكتب قريب منه مع منى . . وظلت عيناه متعلقتين بها حتى غابت .

وعاد إلى صمته ومشاعر قوية تهز وجد، إنه أنه يغالط الحقيقة ويتهرب منها ولا يستطيع أن يكذّب نفسه أو يقتل عواطفه . . إنه يحب آمال منذ أن رآها لأول مرة مع أخيه . . فقد ملكت عليه مشاعره وتغلغلت فى وجدانه . . حاول أن يبعد خيالها عنه ولكن نظراتها كخيوط الحرير أحاطت به من كل جانب فلم يستطيع الإفلات منها . . وصارت هى نجواه فى الخلوة وسميرة فى الليل وأنيسة فى كل مكان يذهب إليه . . ترى ما الذى أوقعها فى طريقه؟ وأى حظ لعين يجعله يحب خطيبة أخيه الذى تفانى فى خدمته وكاد يفقد وعيه حزنًا عليه؟ إنه حب يائس محكوم عليه بالموت ولا يستطيع فى لحظة ما أن يرى النور .

ماذا يكون الوضع لو علم أخوه بهذه الحب؟ سيهدم كل القيم ويجحد مبادئ الأخوة وصلة الرحم التى تربط بينهما . . ومن الخير له إن لم يستطع أن يقتل هذا الحب أن يبعد نفسه . . فلا يتصور فى يوم من الأيام أن ينتزع حقًّا يتمسك به أخوه جابر . . ولكن نفسه الأمارة تتغلب عليه أحيانًا، وعواطفه الجياشة تسكت فيه جانب التفكير . . حقًّا إن كثيرًا من تصرفات آمال نحوه تثير شكه فلا يدرى إن كان هذا عطفًا أو حبًا أو أدى أحدهما إلى الآخر . . وبين العطف والحب خيط دقيق لا يفصل بينهما تمامًا . . ويحس فى داخله بالتوتر حينما يحدثه جابر عن آمال وحبه لها الذى ينسيه مرارة الحرمان، وتلهفها لرؤيته حين يغيب عنها أو تتأخر إجازته . . فلماذا يتوتر؟ هل هى الغيرة؟ أم الحقد؟ . وكيف يغار من أخيه أو يحقد عليه . . وعن غير قصد ظاهر وبحجة العمل الكثير لا يمنحه الإجازة التى يطلبها . . والتى يقضيها مع آمال يستمتعان بينما يظل هو وحيدًا يصطلى بنار العذاب؟!

وحيـنما يمنح الإجازة القصيرة يعيش أحمد فى قلق ويستدعيه أكثر من مرة . . ولا يعـود إلـيه الـهـدوء إلا بعـد سـفر جابـر . . وآمـال كما هى يرى فى عينيها نظـرات تقـربه وتـبعده، وبسـمات تغـرى وتمنع، وبين القرب والبعد والإغراء والمنع يذوب قلبه وعقلـه ويسبح فى بحر عميق لا يستبين من خلالـه أثرًا لشاطئ على ضفافه .

وتحـتدم هـذه الأفكـار فى رأسه وتتصارع وتكاد تقضى عليه وتمزق حياته . . وفجـأة تـبرز فـى مخيلـته منى . . تلك الفتاة الرقيقة الـهادئة التى تطيل النظر إليه كلمـا التقـى بهـا وتتعمد أن تطيل معه الجلوس وبالقرب منها يشعر بالراحة . . بيـنما بجـوار آمال يشعر بالعذاب . . فهل قدّر لـه أن يعيش فى هذا المعترك الذى يطحن قلبه وعواطفه؟ سيطلب من أخيه أن يتزوج آمال سريعًا حتى يستريح هو إلى اليأس ويراجع أفكاره وعواطفه مرة أخرى .

وتتكاثـر الأعمـال فى إحدى الأمسيات مما يجعل العاملين يتأخرون إلى ما بعد منتصـف اللـيل وتطفأ الأنوار فوق الربوة ويخرج أحمد متوكئًا على عصاه تفترسه الأفكـار التى تنهش راحته فى صحوه ونومه . . وعلى السلم الخارجى يرى آمال ومنـى فى انتظاره . . وفى سرعة تعرض آمال عليه أن يوصلـها إلى المنزل فى هذا الـوقت المتأخـر الـذى تخشـى فـيه السير بمفردها . . وتنظر منى إلى أحمد بابتسامة حـزينة أودعت فيها كثيراً من المعانى الصامتة لعلـها رسالة يستطيع أن يفهم منها شيئًا أو بعض شيء . . وابتعدت عنهما فى طريقها فلفها الظلام وتوارت بعيداً .

وتسـير آمـال بجـوار أحمـد وتـبدو متعبة منقبضة مترفقة فى خطاها لا تريد أن تسرع . . تشكو وحدتها وغياب جابر الطويل عنها . . كما أن أسرتها بدأت تملّ هـذا الخطـبة الطـويلة التـى يـؤجلـها جابـر يـومًا بعـد يـوم ولا يـريد أن ينهيها بالـزواج . . إنها تلتمس لـه العذر وتقدر ظروفه . . ولكن أسرتها لا تشاركه فى

هـذا الـرأى. وكـأن هـذه الكلمـات قـد فكّـت عقـال لسـانه فـى هدوء الليل وظلمـته . . وجاشـت عـواطفه وتـدافعت كمـوجة عاتـية تخطـت العائق الذى يصدها.

ووقـف أمامـه فوضـع يـده على كتفها قائلاً: لماذا طلبت منّى أن أوصلك إلى المنـزل مـع قـربه مـن هـنا؟ . ولـمَ تحدثينى هذا الحديث؟ فَأنا لا أسمع منك إلا حديـثًا عن جابر . . ولا من جابرَ إلا حديثًا عنك . . لماذا لا تحدثينى عن نفسى؟ ألا تشـعرين بـى . . ألم تلاحظـى شـعورى نحـوك أبـدًا فى نظرة عينى أو رعشة أطرافـى أو تعثـر حديثـى . . إننـى أحـبك يا آمال منذ أول يوم رأيتك فيه . . لم يسـتطع حـب جابـر أن يقـف حائلاً بين قلبى وبينك . . فليس الحب شيئًا نملكه نسـتبقيه أو نـبعده متـى نـريد . . ولست ميراثًا لجابر لا ينازعه أحد فيه ما دام لم يتزوجك بعد . . إننى ألوم نفسى وأعنفهَا وأقسو عليها . . ولكن متى كان اللوم وسـيلة للـهـروب مـن هذه النار التى تكوينى؟ قال أحمد هذا ثم أمسك يدها فى قوة لتكون تعبيرًا عن حبه . .

نظـرت إلـيه آمال طويلاً ثم خفضت رأسها إلى الأرض ورعشة خفيفة تسرى فـى جسدها كلـه، والكلمات المتقطعة تخرج من بين شفتيها كأنها آتية من مكان بعيد تحمل فى معانيها ألوانا من التوتر والحيرة.

نعـم يـا أحمـد أحسسـت بك فى بعض الأحيان . . وكنت دائمًا أكذّب نفسى وأنكـر مـا ألاحظـه . . أحسسـت بـك قـبل أن تصـاب . . وأحسست أكثر بعد ذلـك . . ولم يسـتطع الغشاء الواهى الذى تصنعه أن يدارى حقيقة شعورك . . تبينـته فـى كل خطوة أو هسمة منك . . ولكن جابراً يقف حائلاً بينى وبينك . . وقـد تـواعدنا قـبلك علـى الـزواج، وتربطنـى بـه قصـة حـب يعلق عليه أكبر الآمـال . . فكيف أتخلى عنه ؟ ولصالح مَن أتخلى؟ لأخيه؟ . . إنها قضية شائكة

لا تستطيع إنسانة ضعيفة مثلى أن تجد لها حلاً . . لقد ألقيتنى فى بحر تتلاطم أمواجه وأنا غريقة فيه لا أتمكن من الخلاص منه أو أجد مَن يأخذ بيدى .

لست قاسية يا أحمد ، وليست القسوة من طبيعتى ، فأنا إنسانة لى قلب يشعر ويتألم ، ولا أنكر أننى انجذبت نحوك فى وقت أو فى آخر . . ربما لأنك شقيق جابر أو لكثرة لقائى بك وانفرادى معك .

وصرخ أحمد : أو تعاطفت معى لعاهتى التى أصبتُ بها فصرتُ عاجزاً .

فقاطعته آمال بسرعة : لا . . أبداً . . ليست هذه هى الحقيقة . . فالذى يحب لا يصدّه شىء حتى لو كان هذا الشىء كما تظنه أنت . . فما بك شىء يسير أصيب به الألوف من ضحايا الحرب ولا يجعلك تفقد الأمل فى الحياة أو تحطّ من قدر نفسك وتنظر إلى الدنيا بمنظار أسود وعيون باكية .

إنك مازلت شاباً قوياً تعطى لبلدك وعملك ما كنت تعطيه من قبل ، ولم ينقص منك شىء . . وجميع زملائك يشهدون لك بالقدرة والكفاءة . . فلماذا تحبس نفسك فى هذا القمقم الضيق . . قمقم العزلة والاكتئاب ؟ !

ألق هذه العصا التى تُشعرك بالعجز وبأنك دون الناس ، واستقبل الحياة بنظرة جديدةَ وبسمة عريضة ، وسأكون مع جابر بجوارك فى كل شىء .

إن منى تحبك حباً كبيراً وأنت لا تحسّ بها . . وهى تحبك لذاتك . . وفيها من الصفات الجميلة ما يؤهلها لك . وكثير من الناس يقولون إننا متشابهان إلى حد كبير .

وابتسمت وهى تقول : أليس كذلك ؟ فلماذا لا تبادلها مشاعرها نحوك وتقربها منك أكثر ؟ إن الطريق الذى نسير فيه معاً طريق شائك . . نهايته الدمار للجميع . . وسكتت تلتقط أنفاسها كأنما ألقت عن كاهلها عبئاً ثقيلاً يؤرقها وتنوء بحمله .

نظر إليها أحمد طويلاً وما زال مسكًا بيدها وقال : ولكننى أحبك ولم أستطع انتـزاع هـذا الحـب مـن قلبـى ولن أقدر عليه، ولم أفكر فى منى أكثر من كونها زمـيلة فـى العمـل، وربمـا كانـت تحبنـى أيضًـا من باب العطف والإشفاق كما تنظرين إلّى الآن.

وغلبـته نـوبة الانفعـال المتمـرد. . فترك يدها وهو يقول: ما أتعسنى فى هذه الحـياة. . ألسـتُ أعيش على هامشها المهمل كطائر جريح يفسحون لـه الطريق ولا يريدون الإجهاز عليه حتى تحين منيته فيتوارى عن الأبصار؟. الأفضل لمثلى أن يخلى الطريق للأقوياء الأصحاء ولا يقف حجر عثرة فى سبيل الآخرين.

وردت آمـال فـى دفعـة قوية: إنك تغالط نفسك. . تريد أن تهرب من الحياة ولا تـواجهها بعـزيمة صلبة تجعل الصعب يلين أمامك، بل تسكب على روحك ألـوانًا مـن السـواد. . تغلـق أمامـك مـنافذ الأمـل. . وأنـا واثقة أن منى تحبك لشخصـك لا لعاهـتك. . وأنـت تعلـم ذلـك، فـلا تغالطنـى أو تخـدع نفسك وتبعدها عن الحقيقة.

ولا أنكر يا أحمد. . اننى أعجبت بك ولم أدع هذا الإعجاب يتطور ويتجاوز حـدوده. . وعانـدت قلبـى معك كما عاندته فى أمور كثيرة من قبل، ووجدت فى هذا العناد لذة التغلب على الضعف فخرجت منتصرة وسعيدة بهذا العناد.

إنـك كرّهتنـى فـى نفسى حيث أردت أن تحبنى. . وكيف أعيش بين أخوين كـل مـنهما يريدنـى لنفسـه. . لا أسـتطيع أن أعيش مع جابر وقلب أحمد يخفق بحبـى. ولا أتصـور أن أكـون لأحمد وأمحو من حياتى ذكريات غالية وحب كبير قطعته مع جابر.

إننى مثلك أصابتى عاهة موجعة، ولا أبالغ لو قلت إنها أنكى من عاهتك. .

أنت مصاب فى ساقك ويراك الناس ويعالجونك . . وأنا مصابة فى قلبى ومشاعرى فلا يراهما أحد ولا يصلون لعلاجهما أو يعرفون لهما دواء . . أرأيت يا أحمد أنك قتلتنى حيث أردت لى الحياة . . وأننى أشدّ منك مرضًا وأوجع ألمًا؟

وعاد أحمد يمسك يدها فى ضعف وهو يقول : سامحينى يا آمال ، فما أردت لك هذا أبدًا . . وما فكّرت فى شقائك وحيرتك . . سأخرج من حياتك يا آمال . . بل من حياتى كلها إذا عجزتُ عن ذلك .

وجذبت يدها من يده ومن خلال دموعها الكثيرة التى انهمرت على خديها قالت : دعنى . . لا أريد أحدًا منكما . . سأعاند قلبى كما اعتدت أن أعانده وكما كنت دائمًا سعيدة بهذا العناد . . ولن يضير جابر بُعدى عنه . . فسيجد غيرى كثيرات لم يوقعهن الحظ العاثر فيما وقعتُ فيه .

وقال أحمد بسرعة : لا يا آمال . . إن جابرًا لا ذنب له . . وهو يحبك وأنت تحبينه . . يجب أن يستمر ما بينكما دون أن ينقطع ، وغدًا أو بعد غد يعود إليك حاملاً فى قلبه الشوق . . فلا ترديه خائبًا وتحطمى أحلامه على صخرة عنادك . . وكما كنتُ سببًا فى شقائك سأكون سببًا فى سعادتك . . سأداوى جراحى حتى تلتئم جراحك .

وابتعدت آمال فى خطوات سريعة متجهة نحو منزلها ، وظلال الليل يلفها فى عباءته الحالكة . وفى اليوم التالى حضرت إلى عملها يبدو على وجهها التعب والذبول كأنها لم تنم منذ ليال طويلة . . فليلة الأمس مرت عليها فى هم ثقيل لم تعرف فيه للنوم طعمًا . . وأفكار متباينة تدور فى رأسها لا تستطيع منها خلاصًا . . وصورتا جابر وأحمد تطلان عليها فى كل خطوة تخطوها .

تسأل نفسها فى حيرة: هل تستطيع أن تمحو ما بينها وبين جابر لمجرد أن أحمد يحبها؟ وما الذنب الذى جناه حتى تعاقبه وتعاقب نفسها معه؟ لاشك أنها فتحت بابًا لأحمد عن غير قصد فكان وبالاً عليها وعليه.. وليس من الصواب أن يلام أحمد وتبتعد هى عن اللوم.. فلماذا توقع القصاص على جابر كأنها تكفر عن خطئها بحرمانه من حبها وبعدها عنه إذا استطاعت هذا البعد؟

وتسألها منى فى إشفاق: ماذا بك يا آمال؟ أين بسمتك ومرحك؟ وما هذا الوجوم الذى يخيم عليك كأنك تحملينَ أعباء السنين.

فتجيبها آمال: لا شيء.. بعض التعب أحسّ به.. وغياب جابر الطويل يقلقنى.

فتقول منى: لا يا حبيبتى.. إن ما بك أكبر من ذلك.. فأنا أعرفك جيدًا وأعرف ما يحزنك والصراع الذى تعيشين فيه. وإذا كان لى من كلمة حب أقولها لك.. دعى الأمور تسير ولا تغيرى سيرتك مع جابر، ونحىّ عن طريقك ما يعترضك من صخور مادُمت واثقة من حبك لجابر وحبه لك.. وهو لن يغيب عنك طويلاً. وضحكت قائلة: سيكون معك اليوم أو فى الغد بإذن الله.

مرت أيام كثيرة لم يأخذ فيها جابر إجازته المعتادة كما كان يأخذها قبل أن يأتى أحمد ويصبح مسئولاً عن هذه الإجازات . . وبينها وبين نفسها تنظر آمال إلى أحمد فى شك وتتهمه فى هذا المنع . . ترى هل يقصد ذلك؟ هل يمنع لقاءهما لحاجة فى نفسه وتؤثر عاطفته على تنظيم عمله فيحرم شقيقه من إجازته؟ وترتفع دواعى الأنانية على روح الواجب والعدل . . أسئلة ملحّة لا تجد لها جوابًا يقنعها أو تفسيرًا يرضيها .

وبعد طول انتظار وصبر أخذ جابر إجازة قصيرة . . وعلمت آمال بموعد وصوله فنسيت كل شيء أعدته . . وفكرت فيه . . ولم يستيقظ فى وجدانها غير صوت الحب ولهفة اللقاء . . وما دار بخاطرها من قبل كان كضباب خفيف انقشع تحت أشعة الهوى الدافئة .

وقبل الموعد ذهبت آمال إلى الشاطئ ووقفت تتطلع إلى الأفق البعيد فى انتظار الحبيب القادم . . وتتمنى لو انشقّ البحر فوجدته أمامها لتسكت هذا النداء الملحّ فى قلبها .

ويتهادى بالقرب منها زورق على صفحات الماء فتتخيله يرقص طربًا ونشوة . . ويقف قريبًا منها وتهلّ عليها طلعة جابر فتقابله بكل ما فى وجدانها من حب ادخرته شهوراً طويلة وكادت تعصف به خواطر وأوهام . . ويبتعدان عن الشاطئ ملتصقين . . وكلما ابتعدا عن الناس ازدادت قربًا منه . . كأنما تبعد شبح أخيه الذى تتخيله واقفًا بينهما يريد أن يحطم هذا الحب ويستأثر به لنفسه . . إنه يستكثر عليهما نعيمًا يذوقانه بعد طول حرمان وشقاء .

وذات مرة قالت لها منى : دعينا نُسكت عواطفنا فلا وقت للحب الآن ولا مكان له فى قلوب حزينة أوجعها اليتم وأضنتها الكوارث وعصفت بها رياح الشر والخراب .

وهى ترى أنها الآن فى أسعد أيام الحب . . فما أجمل الراحة بعد التعب والارتواء بعد ظمأ طويل ؟ ! وأخبرها جابر أنه سيبقى معها يومًا واحدًا ثم يعود إلى عمله . . وأنه اختلسه لشدة شوقه إليها وسيمنح أجازة أطول بعد ذلك .

وساقتها أقدامها دون أن يدريا إلى شقة جابر ودخلتها دون أن تتردد . . أليس هو الحبيب الذى علقت عليه كل الأمل وترى فيه صورة الشقيق الذى فقدته ، والأب الذى حرمت عطفه ، والملجأ الحصين الذى احتمت به بعد سنوات من الفراغ الموحش والضياع المميت .

إنها تخاف من فراقه وما وراء هذا الفراق . . تريده خالصًا لنفسها فلا يفكر فى البعد عنها . وأفاقا من نشوتهما وجلسا يفكران فى المستقبل فأكد لها أنه سيعود بعد أيام قليلة ليعقد قرانه عليها ويعلنا زواجهما أمام الناس .

وعادت آمال إلى منزلها دون أن تتبين أسعيدة هى أم شقية؟ وأصابت فى تفكيرها أم أخطأت؟ أخذت دوامة من الحيرة تتقاذفها وتكاد أن تعصف بها . . وتركت نفسه للقدر .

وعاد جابر إلى عمله وسياط من نار تلهب عقله ووجدانه . يجب أن يُصلح خطأه ويضع الأمور فى مكانها الصحيح . . ويعلن زواجه اليوم قبل الغد . . فمن يدرى ماذا يحمل المستقبل فى طياته وهو يواجه مخاطر وأهوالاً فى صباحه ومسائه . . وماذا سيكون موقف آمال بعد ذلك؟ هل ستواجه النتائج بمفردها والمجتمع لن يغفر هذا الخطأ؟ مهما حاولت تبريره والإفصاح عن صاحبه . .

وأول اللائمين هم أسرتها وأصدقاؤها وربما أخوه أحمد . . عليه أن يتدارك هذا الأمر قبل فوات الأوان .

ويدق جرس الجهاز الآلى فيسمع أحمد صوت أخيه جابر يطلب منه إجازة سريعة ليوم واحد . . ويثور أحمد لهذا العبث الطفولى . . فلا وقت للإجازة للآن ولا بديل عنه فى عمله . . ويلحّ جابر فى هذا الطلب . . ويحاول أحمد أن يعرف السبب الذى يدعوه إلى هذه العجلة . . وآمال تقف قريبة منه تسمع الحديث الذى يدور بين الأخوين وتتمنى لو استجاب أحمد لرغبته فيسعدها ويسعده .

ولم يجد جابر مناصًا من أن يقول لأخيه إنه يريد أن يتزوج . . يريد أن يعقد على أمال خلال ساعات ثم يعود إلى عمله . .

ويبدو على وجه أحمد الذهول والحيرة . . أىّ زواج يريده جابر؟ كيف يتم الزواج بهذا الأسلوب؟ . . إنه فى حاجة إلى وقت وترتيب . . فما الذى يدفعهما إلى ذلك الآن؟

ونظر أحمد إلى آمال . . وتساؤلات كثيرة تطنّ فى أذنيه . . بينما سقطت سماعة التليفون إلى جواره وعيناه معلقتان بآمال التى أسرعت بالخروج وهى تكاد تتعثر فى خطاها . . وشاهد قطرات من الدمع تنحدر على خديها فى صمت تحمل فى انحدارها معانى كثيرة من الرجاء والتوسل لم يستطع أحمد أن يستوعبهما على وجه اليقين .

وتمضى أيام وأسابيع ولم يسمح لجابر بأخذ الإجازة التى وعده بها وألحّ فى طلبها ووقف أخوه حائلاً بينها .

وبدأ القلق يستبدّ بآمال ، وظهرت العصبية فى تصرفاتها وأفعالها . .

واتهمت أحمد فيما بينها وبين نفسها بالتسبب فى هذا التأخير وعاودتها الأفكار القديمة مرة أخرى . . إنه ما يزال يتمناها لنفسه ويود التفريق بينها وبين جابر، وما يُظهره من بعد عنها ليس إلا خداعًا وكذبًا وتمويهًا . . إنه لا يعرف حقيقة ما بينها وبين أخيه وربما لو عرف لتغيرت نظرته وفقد الأمل فيها . . وكيف يعرف؟ ومن سيخبره؟ . . أن كل يوم يمر يزيدها خوفًا وعذابًا . . وماذا تقول لو انكشفت حقيقتها على كره منها؟ وبم تبرر ما فعلت؟ هل لحبها لجابر وخوفها عليه؟ أم لهروبها من أحمد ومحاولة البعد عنه؟

واستبدت بها الخواطر الحزينة دون أن تجد من يقف بجوارها غير صديقتها منى التى شاركتها مشاعرها وهونت عليها الأمر حتى لا تستسلم لليأس.

وفى ليلة داخل برج المراقبة يسمعون صفارات الإنذار تدوى من إحدى البواخر الضخمة حاملة البترول . . وقد شبت فيها النيران . . وفوق الباخرة المرشد جابر عبد الخالق وعليه أن يعبر بها بعيد عن مكامن الخطر . . وتشتد النيران ويصبح من الصعب إخمادها . . ويقف الجميع بجوار أحمد فى برج المراقبة يشاهدون المحاولات المستميتة لإطفاء النيران ولكنها تستعصى على كل محاولة ويزداد انتشارها وتصل إلى كل مكان فيها . . وأصبح هناك خوف من انفجارها فيتعطل سير الملاحة، وتدمر السفن القريبة منها، وتلوث الشاطئ بالبترول الذى سينسكب بعد غرقها . . ولا بد من اتخاذ قرار سريع وحاسم من أحمد الذى بيده الأمر . . ودون تردد يصدر أوامره إلى أخيه جابر بقيادة السفينة بأقصى سرعة إلى المياه العميقة بعيدًا عن موطن الخطر حفاظًا على سلامة الميناء والسفن . . ثم يتركها لقائدها يتصرف فيها بما يراه ويعود فى أحد زوارق الإنقاذ.

ويسرع جابر إلى أبعد منطقة فى البحر ويقود السفينة بسرعة جنونية والنيران تتزايد وتحاصر السفينة وركابها من كل جانب ويطمئن من برج المراقبة على

سـلامة كـل شـيء فلا يشاهدون من السفينة إلا ألسنة اللهب وهىٰ تتراقص فيها على بعد كبير .

واحـدة فقط تقف ترتعش والخوف يكاد يفترسها . . إنها آمال . . وينظر إليها الجمـيع . . فهـم يعـرفون مـا بينها وبين جابر . . ويحاولون أن يزرعوا الطمأنينة والـهدوء فى قلبها . . ولكن هيهات فهم لا يدركون ما بها .

ويوشك جابر أن يغادر السفينة ولكنه يجد أمامه فجأة سفينة كبيرة للركاب . . ولو ترك سفينته لاصطدمت بها . وكانت الكارثة البشرية أعظم وأفدح .

وفـى لحظـة يـتغلب فيها الضمير والواجب على كل شيء فى الحياة . . يتخذ قراره بنفسه . . فيأمر البحارة بمغادرة السفينة ويبقى بها وحده ويقودها بعيداً عن كـل خطـر وتتشـبث يده بعجلة القيادة وينطلق بها بعيداً لا يرى أمامه غير ظلام مطـبق وأمواج عالية كالجبال . . وأتون مشتعل يلفح وجهه وجسمه . . ظلمات بعضـها فـوق بعـض لا يتـبين خلالـها وسيلة لنجاته . . وتندفع السفينة تصارع الـهول وتقاومه .

وفـى بـرج المـراقبة يسـمع الواقفون انفجاراً مدوياً يهز الميناء كلـه . . ويصل صوته إلى سكان المدينة فيفزعون . . وتتحول السفينة العملاقة إلى كرة من اللهب تتقاذفها الأمواج وتوشك أن تلتهمها لتتوارى فى الأعماق .

وتسـرع زوارق الإنقـاذ بأنوارها الكاشفة تبحث عن الناجين الذين تمكنوا من مغادرتها قبل أن تنفجر . . وتركوا مصيرهم بيدى ظلام الليل وظلام البحر .

وعادت الزوارق مع طلوع الفجر بعد انتشالـها الذين نجوا ولم يكن من بينهم جابـر . . وقـال الـناجون إن السـفينة انفجـرت بالمرشـد جابر عبدالخالق بعد أن أمرهم بمغادرتها . .

وأطبقت أنياب الموج فاها على السفينة ومَن بقى فيها، واستقرت أشلاؤها فى الغور السحيق . . ولم يبق منهما غير بقع من الزيت تطفو هنا وهناك .

وفى اليوم التالى نشرت الصحف صورة جابر وتحدثت عن بطولته الفريدة . . وأنه ضحى بحياته فى سبيل أداء واجبه، ولولاه لحدثت كارثة من أبشع الكوارث فى ميناء الإسماعيلية . . وبفضل شجاعته نجت سفينة للركاب تحمل على ظهرها عدداً كبيراً من المسافرين من دمار مؤكد .

وأصيبت آمال بحالة من الذهول من تأثير الصدمة وصارت لا تعى شيئًا مما حولها . . وما قيمة ما تراه من عطف الناس ورثاء الأقارب وتمجيد الصحف؟ هذا كله لن يغنى عنها شيئًا .

لقد مات سندها وحبيبها وزوجها أمام الله وأب لجنين تحس به وحدها الآن دون غيرها من الناس . . وغداً سيعرف ذلك الجميع . . وربما يصدقون أو يكذبون أو يتركون ألسنتهم تقول ما تريد .

واعتكفت فى منزلها عدة أيام لا تقوى على الحركة أو الخروج، وحينما غادرت المنزل إلى شاطئ الذكريات حيث كانت تلتقى بحبيبها الذاهب . . وقفت طويلاً تحت شرفة المسكن الذى ضمها مع جابر ساعات قليلة . . ولكنها أجمل ما فى حياتها من ذكريات . . لقد ختما قصة الحب فى تلك الشقة وكتبا فيها السطور الأخيرة . . ليت أثاثها ومتاعها يتكلم إذًا لتحدث عن أروع قصة للحب نسجت خيوطها هنا .

وحاولت أمها أن تسرّى عنها وتذكّرها بأن جابراً مات كما يموت الأبطال، وكما مات أبوها وأخوها وأبوه هو أيضًا وأخوه . . وكما مات جزء من أخيه أحمد . . فى ساحة من ساحات النضال .

وانتفض جسدها حينما سمعت اسم أحمد . . إن فى نفسها ثورة عليه فقد كان السبب فى كل ما حدث . . فهو الذى أصدر أوامره إليه ليذهب إلى السفينة دون غيره ويتوغل بها فى البحر ولم يبحث عن بديل غيره . ووقف أمام سعادتهما من قبل فلم يعطه الإجازة التى طلبها ليتم زواجه . . وعرقل لقاءه بها أكثر من مرة . . بل إنه أرادها لنفسه دون أخيه . . ولو نصبت محكمة عادلة لكان أحمد هو الجانى الأول فى قضية جابر .

وتمر أيام عصيبة تحاول فيها آمال أن تتمسك بالصبر وتبحث عن حل لمأساتها . . وجففت دموعها وارتدت السواد حداداً على من هو فى الواقع زوجها . . حتى تمهد الطريق لما تريد أن تفصح عنه بعد ذلك .

وذهبت إلى مكتبها واستقبلها زملاؤها كما يستقبلون زميلاً مصابًا فى عزيز عليه ، واختلفت نظرتهم إليها بين حزين لها ومشفق عليها ، ومتشكك فى أمرها .

وعلم أحمد بوصولها . . فتقدم إليها وهو متردد خائف وحياها وهنأها بسلامة الوصول . . وردت تحيته فى فتور . . ثم انكبت على عملها . . وعاد أدراجه . . إنه يشعر بينه وبين نفسه بالذنب . . وإن كان لم يتعمده . . كان الواجب عنده فوق كل اعتبار . . وفى الموقف الأخير لم يُرد بأخيه شراً فلم يتخيل أن يصل به القدر إلى منتهاه . . وما هو إلا وسيلة لمشيئة أكبر من جميع وسائل البشر . . إنها مشيئة الله .

وهو لا ينكر أن عواطفه تلاعبت به . . إلا أنه استطاع أن يكبح جماحها عند منحدر الخطر . . وصمم على أن ينجو بنفسه وبآمال وجابر من لوثة هذه العاطفة . . ولم يدرك تصميم جابر على زواجه من آمال إلا أخيراً . . أدركه

بحسه كأخ، وبشعوره كرجل لـه نزواته وأخطاؤه. . ولولا حادث السفينة لأخذ جابـر إجـازة طـويلة أعدها لـه وكانت بدايتها صبيحة اليوم التالى لـهذا الحادث المشؤوم. . ولكننا نريد والله يفعل ما يريد.

واسـتراح أحمـد بعـض الشـيء لـهذا الحديث الصامت مع نفسه. . وعاد إلى عملـه بين حزن على أخيه ورجاء فى آمال. . وتطلع للمستقبل.

وفـى المساء أنهت آمال عملـها وتأهبت للانصراف إلى منزلـها فاستأذنها أحمد فى أن يسير معها قليلاً. . وبعد صمت أطبق عليها قال لـها أحمد: لقد سرنا فى هـذا المكـان مـنذ شـهور. . مـا أسـرع مرور الأيام ولـم يَدْرِ بخاطرنا ما تخبئه من غـدر. . إنهـا تسـعد لحظة وتُشقى لحظات. . ومازلت أتذكر كلماتك معى. . يجـب أن نعـيش فالحـياة أقـوى مـن كل شيء. . ومادامت أنفاسنا تتردد. . فلا نحاول أن نكتمها باليأس والحزن. . بل يجب أن نتشبث بالأمل ونتعلق به ونطلع إلى الأمام دون أن ننظر إلى الخلف حتى لا نتعثر. . أليست هذه كلماتك يا آمال؟ إن جابـرًا أخـى ولقد بكيت عليه كثيرًا. . ويعلم الله أنى لـم أرد به سوءًا أبدًا. . ربمـا غلبتنـى عواطفى يومًا ما ولكنها لـم تقطع ما بيننا أبدًا أو تتسبب فى حقد أو جفـاء. . يجـب أن تنسـى يـا آمـال ولا تذكـرى نفسك وتذكرينى بما مضى فهو صفحة طويت لا نريد قراءتها مرة أخرى.

وتـردد آمال: ليس فى استطاعتى أن أنسى. . هناك أشياء يعجز الإنسان عن نسـيانها. . لقـد أحببت جابرًا وحرصت على أن يكون لى ولا يفارقنى. . كنت أخشـى فـراقه. . وأخاف منك أنت يا أحمد. . أحسست بأنك تريد أن تنتزعنى مـنه وأنـك سـيف مسـلط علـى عنقـى. . فارتعـدتُ كثيرًا لـهذا الإحساس. . وسـاورنى هـذا الشـعور فى لقائى الأخير مع جابر. . أردت أن ارتبط به ونضع أنفسـنا أمام الأمر الواقع فلا نترك مجالاً لعاطفة أخرى تتسلل لواحد منا فتخدش ما بيننا من حب.

وهـذا جابـر قـد مـات، وسيكون لـه ابن يأتى إلى الوجود ولا يجد لـه أبًا . . سوف يقبلـه البعض وينكره الآخرون .

وأنـت يـا أحمـد سـبب قـوى لما حدث، ولولا خوفى من عواطفك أن تطيش معـى أو مـع جابـر مـا لجأت إلى هذا الأسلوب الذى أوقعتنى فيه وظننته الطريق السـليم لـنجاة كل منا من سوء المصير . أرأيت يا أحمد أن هذه أشياء لا يمكن أن تنسى مهما كانت الظروف؟

وتـركته عائـدة إلى منـزلـها . . ولـم يتحـرك هـو من مكانه وعلى وجهه يبدو عذاب كبير تنوء بحملـه الجبال حتى أوشك الليل أن ينقضى .

إحساس بالذنب

لم يـذهب أحمـد إلى عملــه فـى صـبيحة اليوم التالى كما اعتاد أن يذهب منذ حضـوره إلى هذا المكان . . وانتظر زملاؤه قدومه بين وقت وآخر . . فالعمل فى حاجـة ملحـة إلـيه . وسـألت منى آمال عنه فقالت لـها : إنها تركته عند مدخل الشـاطئ فـى حالة نفسية سيئة بعد أن قست عليه فى القول وأشعرته بأنه السبب فـى مـوت أخيه والـهوان الذى نزل بها . . ولاشك أن يعيش الآن تحت ضربات موجعة من سياط الضمير . . لعلـه يكفّر عن بعض ما فعل .

وأمسـكت بهـا منـى فـى عصـبية قائلـة : إنـك تحطمينه يا آمال وتحفرين قبره بـيديك . . دعـيه يعيش فهو إنسان منكوب يشعر بالضعف والضياع . . تشتتت اهـواؤه وعواطفه فلم يعد يجد أرضًا يقف عليها بعد فقده لأسرته . . حاولى وأنا معـك أن نعـيد إلـيه ثقـته بنفسـه ونجعـل مـن كلينـا أسـرة بديلـة لـه عن أسرته الشهيدة ، ولو حاولتِ بصدق وإخلاص لاسترد عزيمته الواهنة وصنعنا منه بطلاً كمـا كـان فـى الماضـىَ . . إن لـم يكـن مـن أجلـنا فمـن أجل العمل الذى نحبه ونضـحى مـن أجلـه وضـحى فـى سـبيلـه أبـوانا وإخوتـنا . . من أجل كفاحنا وآمالـنا . . إنـنا نحـتاج إلـيه . . إلى الأبطال من أمثالـه فى تلك الظروف القاسية التى نعيشها ويعيشها الوطن .

انزعـى مـن قلـبك القسوة عليه . . وكونى به رفيقة عطوفة وستجدينه إنسانًا جديـدًا قـويًّا كمـا عـرفناه ـ أنـا وأنـت ـ مـن قبل . . إنه يحبك يا آمال كثيرًا . . فاتخذى من هذا الحب وسيلة لحياته لا لموته .

وسـكتت منـى وقطـرات مـن الدمـع تترقـرق فـى عينيها يمنعها الكبرياء من

النـزول . . ونظـرت إلـيها آمال ثم قالت : بل أنت التى تحبينه يا منى . . وتحبينه بعـنف . ولـو عـرف الطـريق الصحيح لاختارك زَوجة لـه . . فمهما حاولنا أن نخفى عواطفنا أو نداريها فلا بد أن تظهر .

وقطـع علـيهما الحديث ضوضاء وحركة غير عادية فى برج المراقبة . . وعرفا أن إحـدى السـفن الكـبيرة قـد جـنحت فـى القـناة قـبل أن تصـل إلى مـنطقة المرشـدين . . ويـبحث الجمـيع عن أحمد ويرسلون فى طلبه ليحضر سريعًا حتى يمكن انقاذ السفينة قبل أن تتعرض للخطر .

ويُقـبل أحمـد علـى عجـل وشـعره مشعث وعيناه ذابلتان وصفرة تعلو وجهه يحـيطها غشـاء مـن الحـزن يدعـو للـرثاء والشـفقة . . ولأول مرة تنظر إليه آمال بإشـفاق . . ويراه الموظفون على هذه الـهيئة . . وتسرع إليه منى وتخبره بالسفينة التـى جـنحت ويبدو على وجهها الاهتمام . . وكأنها تريد أن تقول لـه شيئا . . ويبحث أحمد عن المرشدين فلا يجد أحدًا منهم ويقف حائرًا لا يدرى ماذا يفعل .

وتـتقدم مـنه منـى قائلـة فـى ثقـة : لا يسـتطيع أحـد أن ينقذ هذه السفينة إلا أنـت . . إن سمعـة الـهيـئة ومكانـتها بين يديك . . فلا تبدد هذا الرجاء . . ولا تترك فرصة ليتهمنا العدو بالعجز والتقصير .

وينظـر إلـيها أحمـد غـير مصدق حديثها ويتكلم كأنما يحدث نفسه : أنا إنسان معـوق غـير قـادر علـى العمل . . يظنون أننى قتلت جابرًا ويحزنون عليه لأنهم يفـتقدونه الآن . أنا لم أفعل هذا . . ولم أفكر فيه . . وهل يستطيع مثلى أن يقود سـفينة ويرشدها . . إن حديثك يا منى لون من العطف أشكرك عليه أردت به أن تشـعرينى أننى مازلت أعيش بينكم . وتدخل آمال بسرعة وتتجه إليه قائلةَ وهى تـراقبه فـى نظـرة حانـية : بـل أنت قادر يا أحمد . . كيف تدعونا للحياة والأمل

وأنت تتهرب منهما . . إننى أثق فيك كما يثق بك كل زملاؤك . . أرجوك أن تذهب الى السفينة من أجلى ومن أجلنا جميعًا ومن أجل مصر . . دع الماضى وانسَ ما تكلمنا فيه . . لقد قلته فى لحظة ضعف وتوتر . . إنك أديت واجبك ولن تستطيع أن تصد أمرًا أراده الله . هيا يا أحمد ولا تتردد . . ودفعته بيدها فى رفق . . فأحس كأن ملمسها السحر يشده للأمام . . ونظر إليها وإلى منى وعاد ينظر إلى عصاه . . فانتزعتها آمال من يده ليتحرر من الوهم الذى يقيده ويشده إلى الأرض . . ويتدفق الحماس فى أوصاله وتتسع خطاه وكأن الزمن الذى فصل بين ماضيه وحاضره قد انسلخ من حياته فعاد سيرته الأولى .

وركب أحمد أحد الزوارق السريعة فاندفع به نحو السفينة الجانحة والجميع ينظرون إليه فى قلق وترقب . . بينما عينا أحمد مثبتتان على السفينة . . ويراها فى أول الأمر سدًا هائلاً كبيرًا فيبدو القلق على وجهه ويتصبب العرق من جبهته . . ويعاوده إحساسه الداخلى بالعجز . . وتحدثه نفسه بالتراجع . . وفجأة يقف الزورق أمام سلم السفينة ولم يعد ثمة مجال للهرب، ويتحرك أحمد ببطء شديد ناظرًا مرة إلى أعلى . . وأخرى إلى أسفل . . وثالثة إلى ساقه الخشبية . . وإذا درجات السلم التى لا تتجاوز عشر درجات تطول وتطول حتى تكاد أن تصل إلى السماء . . ويستحثه قبطان السفينة على الإسراع . . فيتقدم كأنما يساق إلى الموت . . ويحاول أحد البحارة أن يمسك بيده . . فينتزعها منه بقوة وتتراءى له آمال وهى تناديه : هيا من أجلنا . . ومن أجل مصر . . ولا تخيب آمالنا فيك .

فيفيق من تردده ويسرع نحو برج السفينة وقد تملكه إحساس قوى بأنه قوى وقادر ولن يعوقه شيء عن العمل . . ودقت أجراس السفينة استعدادًا للعمل . . ويبدأ أحمد فى قيادة السفينة وإخراجها من المأزق الذى وقعت فيه .

وبصعوبة ومهارة عُرفت عنه . . نجح أحمد فى مهمته ، وتأخذ السفينة مجراها السليم . . ويصفق الجميع لأحمد ويرسلون له التهنئة عبر الهاتف اللاسلكى . . وتجلس منى على مقعد وقد سرحت بعينيها إلى بعيد . . وآمال تنظر إلى السفينة وقطرات من الدموع تتجمع فى عينيها .

وتضع منى يدها على كتف آمال وهى تقول : أرأيت صدق ما قلته لك . . إن كلمات قليلة منك أعادت أحمد بطلاً كما كان . . ورب كلمة تفعل فى النفوس ما لا يفعله السِّحر .

وأشرقت على أحمد حياة جديدة وعاودته الثقة بنفسه . . وعاش إنسانًا عاديًّا يفرح ويحزن كما يفرح ويحزن الناس . . وزاول عمله فى نشاط وهمة استلفتت نظر زملائه ورؤسائه دون أن يعرفوا سبب هذا التغيير المفاجئ . . وقال بعضهم : إنه يريد أن يعوض حياة أخيه جابر ويضيف ما ذهب من عمره إلى عمل متواصل كله حيوية وإخلاص .

ولم يتردد فى قيادة أكثر من سفينة بنفس الثبات والمهارة التى كان عليهما من قبل .

ولم ينغّص عليه صفو حياته إلا فقده جابراً . . وإحساسه أحيانًا بالذنب . . ونظرة الشك التى يلاحظها من آمال . . فتحرق أعصابه وتعيده إلى دوامة الألم والعذاب .

وفى إحدى الأمسيات وعند انصراف الموظفين . . يطلب أحمد من آمال فى قوة وثقة أن يسير معها إلى منزلها . . إنه يطلب منها ذلك فى غير حرج . . بعد أن أصبح قادراً على السير بثبات وعلى الأخذ بيديها كأى رجل قوى . . وفى الطريق على شاطئ البحر ونسمات رقيقة تداعب أوراق الشجر وأضواء خافتة

من بعض المصابيح الذابلة ترتمى تحت أقدامهما . . يستيقظ إحساس أحمد القديم نحو آمال . . فلم يعد هناك حائل يقف بينه وبينها . . فيطلب منها فى صراحة أن تنسى الماضى بكل ما فيه . . إن نكبتها فى جابر لا تقلّ عن نكبته . . لقد كان يحبه مثلها بل أكثر . . إنه يرى فيه استمراراً لكفاح شاءت ظروفه أن يتراجع عنه . . ويرى فيه صباه وشبابه وأباه وأمه وأخاه . . يرى فيه الماضى والحاضر والمستقبل أيضًا . . ولكن القدر الذى يأخذ بيد يعطى باليد الأخرى . . أخذ جابراً بعد أن قام بعمل كبير يخلده فى سجل الأبطال . . وأعطانى ما فقدته من نفسى . . أعطانى الثقة والثبات والأمل . . وأعطاك أنت جزءاً منه تركه ينمو فى داخلك . . وغداً يصبح بديلاً عنه فى الحياة . . والفضل فى ذلك يرجع لك وحدك ولأخى . . فهل تقبلى يا آمال أن نكمل ما بدأه أخى معك . . وما بدأته أنت معى . . وكلاهما بداية للحياة والحب والتمسك بالبقاء . . إننى أعاهدكَ علىَ الإخلاص والوفاء وتحقيق الهدف المشترك لى ولك وللطفل الذى سيأتى . . سيكون ابنى أمام الناس وابن أخى أمام الله .

إننى أريد أن أتزوجك يا آمال غداً أو بعد غدٍ . . فلا تهربى من واقع يحتم علينا ذلك .

وتكاد آمال ألا تصدق أذنيها . . كيف يطلب منها هذا الطلب؟! لقد صممت أن تعيش أيامها الباقية لذكرى جابر الشهيد ولأجل ابنه .

ويردّ عليها أحمد فى صرامة : ومَن أحق منى بالاشتراك معك فى حمل المسئولية . . إن المجتمع الذى نعيشه لن يقبل منك طفلاً لا أب له . . وأنا مستعد لأن أعمل ما أستطيع لحفظ الشكل الظاهرى الذى اصطلح عليه الناس . . وصونًا لكرامة الإنسانة التى كانت ستصبح زوجة لأخى فى يوم ما . . وعندئذٍ تفر منه آمال مسرعة دون أن يأخذ جوابًا .

وفى البيت تظل ساهمة تفكر فى الأمر . . هل تستطيع أن تربط حياتها بإنسان لا تحبه . . ألا تكون مخطئة ومتجنية على نفسها وعليه؟

ولكنه يقدّم لها أجمل حل مناسب ينقذها مما هى فيه . . إنه يضحى بأشياء كثيرة لا يرتضيها غيره أو يقبلها . . وربما يريد مما يفعل أن يكفّر عن الأخطاء التى يظن أنه اقترفها .

وفى اليوم التالى تُحدث منى بما دار بينها وبين جابر بالأمس . . ولدهشتها تحثها منى على الزواج من أحمد مؤكدة لها أنه يحبها ولولاها ما انحلت عقدة إحساسه بالعجز . . وعاد إلى سيرته الأولى . . فلا تكونى أنانية فى عواطفك . . حاولى أن تضحى . . فالحياة ليست كلها أخذ بل هى أخذ وعطاء ، وأرى أن تستجيبى له سريعًا .

فترد عليها آمال : كيف تقولين ذلك وأنت تحبين أحمد وتتمنين الزواج منه؟ ! إننى أحسّ بك يا منى وأقدر عواطفك النبيلَة وتضحيتك من أجلى . . تحرقين نفسك لتضىء لى الطريق وتردى إلىّ اعتباراً يوشك أن يضيع منى إلى الأبد .

فتقول منى بسرعة : أنت يا آمال أحق به منى . . فهو يحبك حبًّا كبيراً . . ملك عليه مشاعره فعاد الآن أقوَى مما كان عليه بعد موت جابر . . وأنا إنسانة واقعية فى حياتى ، وأدرك أن أحمد لم يحسّ بى ولا يحبى ، ولم يدرك حقيقة عواطفى فى يوم من الأيام . . إنه يعاملنى كزميلة وصديقة مثل غيرى ممن يلتقى بهن . فلا تترددى يا آمال وأسرعى بالزواج منه .

واستجابت آمال لأحمد وتم الزواج فى صمت لم يحضره إلا عدد قليل من الأهل والأصدقاء . . وأحست آمال أنها تسير فى الطريق الوعر الذى رسمه لها القدر . . طريق التضحية بالنفس ومشاعر الذات . . من أجل كرامتها وسعادة الجنين الذى يحمل لها أجمل الذكريات فى حياتها .

وعندما يغلق الباب على العروسين فى أجمل ليالى العمر . . ينظر أحمد إلى آمال ولا يعرف ماذا يقول . . أنه يريد أن يترك عواطفه لتقول ما يرى . . وينتظر منها أن تبرهن على أنها تزوجته عن حب واقتناع لا عن شيء آخر وضرورة ملحة . . وتنظر إليه آمال وكأنما تعتذر عن تجاهلها له وعدم تجاوبها معه، وتحس بأزمته النفسية تتصاعد منها لينقذها من القيل والقال وينقذ سمعتها . . ماذا كانت تفعل لو لم يقم بهذا العمل . . إنه هو الذى ضحى وليست هى . . ومن واجبها أن تكافئه على تضحيته وتعطيه الحق الذى ينتظره .

وتقدم له نفسها كطائر مذبوح يستسلم لصائده، ويدرك أحمد ما يدور فى داخلها من صراع . . فيعدل عن رغبته ويبتعد عنها . . ولا يقبل أن تقدم له نفسها كضحية . . فليتركها الليلة . . ومَن يدرى . . لعلها تكتشف حبه مع مرور الأيام . . وتنسى الماضى - طيف أخيه - الذى يقف دائمًا بينهما . . ويصبحان زوجين أمام الله . . كما أنهما زوجان الآن أمام الناس . . ويقرر الانتظار والصبر .

وتتوالى الليالى يدفع بعضها بعضًا . . وأحمد وآمال كلاهما فى عذاب . . هو يريد حقه الشرعى . . وهى تحسّ مانعًا يحول بينها وبين ما تريد دون أن تعرف حقيقة هذا المانع .

لقد حاول معها مرات ومرات دون جدوى حتى خيل إليه أنها حجر لا يدرك ولا يحس . . وتأكد بينه وبين نفسه أنها قبلته مرغمة صاغرة .

وذات ليلة ثار عليها وقد فقد هدوءه وراحته . . أليس ما يطلبه منها من حقه عليها كزوج . . إنها تحرج أحاسيسه بهذا التجاهل . . وما يؤلمه ليس مجرد حاجته إليها كزوج يطلب شيئًا ماديًا . . وإنما يؤلمه أكثر حاجته إلى مودتها ورحمتها كإنسان يريد الاستقرار والسكن .

وذات مـرة جلـس يداعبها فى هدوء الليل وقد أحسّ أنها مقبلة عليه فنظرت إلـيه فـى حب وإشفاق كأنها تعتذر عن سلوكها ونفورها منه . . حتى إذا أحس بقرب الانسجام والناغم بينهما ، إذا بها تفر من أمامه فجأة وهى تبكى إلى مكان بعيد . . إنها تهرب من نفسها كمحبة ومن ضعفها كأنثى .

ويجلـس أحمد مرهق النفس يحس بالخيبة والفشل ويوشك أن يعاوده إحساسه بالضياع . وتأكد تمامًا أنه لا سبيل إليها . . وتركها وقد أسلمه اليأس لما تريد .

فـى صـبيحة الـيوم التالى لانفجار شاحنة البترول وعلى صفحة الماء . . بقايا مأسـاة الأمـس . . بقـع من البترول تغطى أجزاء منه ، وألواح خشبية متناثرة هنا وهـناك وزوارق مطاطية تمزقت واحترقت . . كأنها معركة انتصرت فيها الطبيعة وتركت فى ساحة الصراع أدلة انتصارها .

ومـن بـين هـذه الـبقايا لوح خشبى كبير غفل عنه رجال الإنقاذ وعلى ظهره جسـد ممـدد تتشـبث يـداه بأطـرافه ويـتجمد علـيها لأنه الأمل الوحيد لإنقاذه ، وتـتقاذفه الأمـواج حتـى يلقـى بـه الـيم علـى سـاحل سـيناء ويدفعه بعيداً عن الـرمال . . وتمر بالقرب منه سيارة بها بعض رجال الدين والكهنة من دير سانت كاتـرين الـذين كانوا عائدين من مهمة دينية لدى تجمع سكنى من بدو سيناء . . ويشـاهد السـائق اللـوح بمـن علـيه فيخـبر مـن معـه . . ويـتقدمون نحـوه ويتفحصـونه . . فـإذا هـو جـريح وجراحه بالغة والنار شوهت أجزاء كثيرة من بدنـه ووجهـه . . ولا يسـتطيع الحركة أو الكلام ويهذى بألفاظ لا تعبر عن شيء ولا تدل على معنى .

وبدافع الرحمة والعطف يأخذونه معهم إلى الدير . . فليس لـه مكان سواه . . ولـو تـرك لمـات فـى موضـعه والتهمته حيوانات الصحراء التى تنطلق فى الليل باحثة عن طعام لـها .

وفـى داخل الدير المنحوت فى الصخر وداخل حجرة مضاءة بالشموع يرقد الجـريح . . ويفحصه طبيب من الرهبان ويعطيه بعض الدواء ، ويخبر مَن معه أن حالـته خطـيرة وهـو محمـوم يهذى ومن الخير أن يعالج ويبقى عندهم حتى يفيق

وتتحسن حالته ونعرف شيئًا من أمره . . فربما فضّل البقاء معهم إلى النهاية فليس لمثله مكان إلا هذا الدير .

وتمر أيام ويفيق المريض من ذهوله ويتماثل للشفاء ويعرف الرهبان أن اسمه جابر عبد الخالق ويعمل فى البحرية المصرية وقد انفجرت به شاحنة بترول ولم يستطع النجاة مع زملائه . . وقبل أن تغوص فى الماء تمكن من التعلق بهذا اللوح الخشبى ولم يعلم شيئًا بعد ذلك . . حتى وجد نفسه فى هذا الدير وهو يدين بحياته لهم . . ولولا إنقاذهم له لكان فى عداد الأموات .

وشاهد سلوك الرهبان وزهدهم فى الحياة وعباداتهم وصلواتهم . . إنهم واحة أمن وقداسة فى هذا المكان الطيب الذى عظمه الله من طور سيناء . . وأنس إلى بعض الرهبان فجالسه كثيراً وحدثه عن ماضيه وأسرته وحبيبته . . وأنه مازال يحبها ويود الزواج منها . . فهل يتبدل حالها بعد أن تشاهده فى هذه الصورة المنفرة التى يكاد يهرب منها الجميع . . ويجيبه الراهب بأنها ستقبله ما دامت تحبه لذاته وشخصه ولن يغير هذا من أمرها شيئًا . . وأنه أخطأ معها فيما ارتكبه قبل رحيله وكان عليه أن يتمسك بالعفة حتى يتزوجا دون أن يرتكب معها وزرًا لا يعرف هو نتائجه الآن .

ثم قال له : عليك يا بنى أن تستغفر ربك فقد يجمع الدهر بينكما وليس بين البشر من يعيش بلا خطيئة . . وأظنك قرأت أو سمعت عن مريم المجدلية حينما أخطأت . . وثار عليها الناس ، فقال لهم المسيح عليه السلام : مَن كان منكم بلا خطيئة فليرمها بحجر . . فلم يفعل أحد . . والله رحيم يغفر الذنوب يا بنى فلا تقنط من رحمته .

واندملت جراح جابر تمامًا ولكنها تركت آثاراً فى جسده دون أن تترك آثارًا

فـى نفسه . . فهو إنسان قوى لا تؤثر فيه نظرات الإشفاق التى يراها على وجوه الرهبان من حولـه . . وعرضوا عليه البقاء معهم . . ولكنه رفض وثار . . كيف يظـل هـنا ميتًا فى صورة حى بينما الوطن فى حاجة إليه . . وهل يرضى الله عنه إذا طلّـق الدنيا وهو قادر على العمل، أو عاش عالة ينتظر المدد والعون كشجرة اللـبلاب المـتطفلة . ولو عشنا جميعًا فى هذا الدير فمن يعمر الكون ويدفع العدو ويحفـظ الجنس البشرى . . إنه يحس أنه قادر على فعل ما كان يفعلـه من قبل . . وصمم على ترك الدير . . وأوصلـه صديقه الراهب إلى أول الطريق الذى يؤدى بـه للإسماعيلـية . . ولم تطل رحلته كثيراً . ونزل قريبًا من البرج الذى يعمل به أخـوه . . ووقـف أمامـه وعـوامل كـثيرة تـتجاذبه . . لا يستطيع أن يستقر على واحـدة مـنها . . هـل تقـبلـه آمال أم ترفضه؟ وما حالـها الآن ورأيها فيه؟ وأين أخـوه ؟ . . أسـئلة كثيرة وحائرة تعصف برأسه وتكاد أن تمزقه حتى إنه فكر فى العودة إلى الدير مرة أخرى ليضع حدًا لآلامه ويعيش مع هؤلاء المنقطعين للعبادة الذين باعوا دنياهم فى سبيل دينهم حتى نهاية العمر .

واقترب منه رجل ممن يعملون فى هيئة القنال وشاهد حيرته وتردده . . ونظر إلـيه طـويلاً ثم عرفه من عينيه وصوته وبعض الملامح التى مازالت تدل عليه . . وهتف بصوت عال : جابر عبد الخالق . . لقد ظننا لك شهيدًا من شهداء الباخرة، وفقـدنا الأمـل فـى العثور عليك . . أين كنت هذه الشهور؟ وماذا أصابك؟ لقد نَعـتْك الصـحف وأشـادت ببطولتك . . وتقبلت أسرتك العزاء فيك . . وجذبه مـن يـده فـى فـرحة وعارمـه . . والتقيا بمنى التى سعدت بوجوده وعودته . بعد الدهشـة القـوية التى أصابتها . . فلم تتصور أبدًا أن يبعث الأموات ويعود جابر مرة أخرى . . وآلمها ما أصابه من تشوهات وجروح دون أن تشعره بهذا الألم .

وانفـردت منى به فى مكتب منعزل وحدثته عن أحمد وآمال . . وكيف أنهما

تـزوجا مداراة وسترًا وحفاظًا على الوليد المنتظر منه . . وذلك بعد أن تأكدا من فقده وعدم العثور عليه من رجال الإنقاذ .

وأكـدت لـه أن هذا الزواج لـه وضع غريب قلّ أن نسمع به . . فما زال كل مـنهما بعـيدًا عـن الآخـر . . فـرغم بعـدك إلا أنـك تقـف بيـنهما بخـيالك وذكـرياتك . . فعد إليها بواقعك . . فآمال مخلصة لك ولن تضيق بك . . وأحمد سيسعد كثيرًا بعودتك .

وانتشـر الخـبر سـريعًا فأقـبل زملاؤه يهنئونه بسلامة العودة ولا يصدقون ما سمعوا وشاهدوا .

وأرسلت منى تطلب أحمد سريعًا لأمر عاجل . . لأن آمال غائبة لم تحضر إلى عملـها اليوم . .

ويحضـر أحمد . وقبل أن يصل إلى منى . . يخبر زملاؤه بعودة أخيه . . ويقف مشـدوهًا حائـرًا . . ثـم يندفع نحو أخيه يعانقه ويستفسر منه عما حدث ، وأخذ يهون عليه الأمر ، حتى اطمأن كلاهما للآخر فى أخوة صافية بريئة .

ولـم يخـف عنه شيئًا مما حدث ، وأن آمال مازالت فى انتظاره . . لقد تزوجها وديعـة وأمانـة ؛ لأن شيئًا ما فى أعماقه وأعماق آمال كان يحدثهما بأنه عائد . . وأقسـم لـه أنـه لم يعاشرها قَطّ معاشرة الأزواج . . بل كانت بالنسبة له كأخته وقـال لـه مؤكدًا : إنها فى انتظارك الآن ، فهيا بنا إليها . . واليوم سأنهى ما بينى وبيـنها مـن شـكليات رسمـية لـتعود إلـيك زوجًـا وحبيـبة ، وأمًـا لأبنك الذى تنتظرانه .

قـال جابـر : ولكـنك الـزوج و . . وقـبل أن يكمل حديثه أسكته أحمد وقال لــه : لقـد طلقـتها بينـى وبينـى نفسـى ، وستطلق بعد ساعات بينى وبينها وبين الناس ، ولن تكون لغيرك أبدًا مهما كانت الظروف .

ويـذهب جابـر وأحمد ومنى إلى المنزل ويصعدون فى هدوء وتخبرها منى بأن ضيفًا عزيزًا يريد أن يراها . . وما إن تواجهه حتى تترنح من الصدمة . . وبعد أن تفـيق من هول المفاجأة تصافحه مصافحة حارة . . فلم تنس أنها زوجة ولزوجها حـق احترامـه ومـراعاة شعوره . . وينظر إليها أحمد من بعيد وهو يقول لقد عاد إلـيك جابـر وغـدا سـتكونين لــه . . فمـا كـنت إلا وديعة غالية حرصت على صيانتها وحفظها حتى يقدر الله ما يريد . . وقد قدَّر وأراد .

ولم تأبـه آمـال لمـا أصـاب جابـر فأقـبلت عليه بكل الحب والشوق وعذاب الشهور التى مرت بها .

ولم تمـض غير أيام قليلة حتى أنجز أحمد ما وعد به . . فأتم إجراءات الطلاق لتعود الحبيبة إلَى حبيبها .

وقبل أن يفعل ذلك استشارها فيما ينوى عمله وإن كان يدرك أن الأمر ليس فى حاجة إلى مشورة .

فلـم يغب جابر عن آمال لحظة . . بل كان معها فى العمل والطريق وحجرة الـنوم . . وتحس أن كيانه كلـه يعيش فى أعماقها . . لم تصدق أبدًا أنه مات . . بـل كـان شعورها الخفى يحدثها بعودته مرة أخرى، وأنهما سيشهدان معًا ولادة ابنهما المنتظر .

ولأول مـرة يخـرجان معًـا بعـد عـودته ويسـيران فـى الطريق الذى سارا فيه عشـرات المرات . . وشاهد ولادة حبهما . . وكان ممسكًا بيدها ويخشى أن يضيع منها أو تضيع منه مرة أخرى .

ثـم قـال لـهـا : حينما كنت أعالج فى دير سانت كاترين ويطبق علينا الليل بظلامـه وهـولـه . . أراك الشـمعة المضـيئة أمامى . . يلتمس الرهبان الضوء فى

الخـارج بمـا يشـعلون من قناديل . . وأراك فى داخلى قبسًا وهّاجًا قادرًا على أن يضىء كل شيء . . وفى يوم شاهدت فرحًا بدويًّا أقيم فى الدير تبركًا به فغبت عـن حاضـرى . . فتخيلت نفسى العريس وأنت العروس . . وعشت فى نشوة حالمـة حتى انتبهت للواقع المر الذى يحيط بى . . لم تكن حياتى تساوى شيئًا من غـيرك . . تمنيت الحياة لأسعد بك وأوفى بالوعد الذى قطعته على نفسى لأكون لـك زوجًا . . وكم كنت أتعذب فى سبيل ذلك أضعاف أضعاف ما تتعذبين . . والآن حان وقت الراحة يا حبيبتى آمال .

انتظر جابر آمال انقضاء فترة العدة الشرعية ليتزوجا، وفى كل يوم يتجولان فى مواطن الذكريات ويرتشفان من رحيق الحب الذى حرما منه طويلاً.

وفى جلسة شاعرية يقبل أحمد ممسكًا بيد منى بعد أن تمت خطبتهما ويستعدان للزواج.. لقد آمن بأنه يحب منى حبًّا كبيراً وأنها تبادله الحب.. وما مر به من قبل لم يكن غير ضباب خفيف سرعان ما انقشع وتبدد.

وقال أحمد لأخيه جابر: إن الدولة تعد لشيء ما فى سرية وكتمان.. فالأسلحة تتدفق على منطقة القناة فى ظلمة الليل وتأخذ مواقعها فى المواجهة.. والطرق تهيأ.. والضباط الكبار لا ينقطعون عن زيارة المنطقة فى خفاء.. والقوات البحرية تحرك قطعها إلى أماكن جديدة لم تكن تذهب إليها من قبل.. ترى هل صممت مصر على أن تغسل عار الهزيمة وتستردّ الجزء المسلوب من سيناء الغالية؟

هل آن الأوان لتبيض وجوهنا وتعود إلينا كرامتنا أمام أنفسنا وأمام العالم؟

ويؤمّن جابر على كلامه.. فمنذ أن عاد إلى عمله وهو يدرك هذا الأمر ويتوقعه.. فليس من المعقول أن تنام مصر بتاريخها وحضارتها وقيادتها الواعية، وتستكين لهذا الاستعمار الذى يجثم على جزء من أرضها.

وفى أثناء تجواله فى البحر أدرك بحسه هذا الأمر.. ولكن متى سيحدث؟

لا يعلم أحد إلا الله هل يتم فى القريب أو البعيد.. إنها مسألة يقدرها الخبراء العسكريون فى دقة حتى لا يقع ما حدث من قبل ويتكرر الخطأ الذى أدى بنا إلى هذه الكارثة.

وتأتـى بـرقية عاجلـة تستدعى جابراً للسفر إلى القاهرة لمقابلة أحد المسئولين الكـبار . . ويضـطرب جابـر لـهـذا الخبر وتتوتر آمال . . ويخيل إليهما أن القدر يقف لـهما بالمرصاد ولا يريد أن يغفل عنهما .

ويسـافر جابر إلى القاهرة حيث يستقبلـه أحد القادة ليبلغه تحية رئيس الدولة وأنه أصدر قراراً بعلاجه وتجميل جروحه على نفقة الدولة فى الخارج . . وعليه أن يستعد للسفر بعد يومين مع طبيب مرافق لـه .

ويعـود جابر ليبشر آمال بهذا الخبر فتصمم على السفر معه بعد أن أصبحت زوجة لـه . . وتمنحها الشركة إجازة وتذكرة للسفر .

ويسـافر جابـر وأمـال إلى أوربـا ويمضـيان شـهراً فيها . . يستكمل خلالـها علاجه .

ويسـمع هـناك مـن الإذاعـة أخـبار هجـوم القـوات المصـرية علـى العـدو والضـربات المـوجعة التـى وجهـتها لـه واسـترداد الأجـزاء المغتصـبة مـن تراب مصر . . وشهادة العالم كلـه بكفاءة الجندى المصرى وبسالته وتضحيته . . وتمنى لـو كـان موجـوداً وشـارك ولـو بجهـد قلـيل مع أبناء وطنه . . فلا يوجد شرف يضاهى هذا الشرق أو يماثلـه عند الله وعند الناس .

ويرسل برقية إلى أخيه بموعد حضوره بعد أن عادت إليه صحته ووسامته . . ويسـتقبلـهما أحمد ومنى فى المطار . . وينزل جابر ومن خلفه آمال فيضمه أخوه فـى حـب وشـوق ويمـزح قائلاً : لقد عدت أجمل مما كنت . . إن وجهك يضىء كالقمـر . . فحمـداً لله علـى ذلـك . . وتسير آمال بخطوات بطيئة بعد أن أثقلـها الحمل وتساعدها منى وتسير بجوارها .

لقـد عـاد الجمـال إلى وجـه جابـر . . كمـا عـاد إلى وجه مصر . . ولم تكن

فرحته بشفائه بأكثر من فرحته بشفاء وطنه من الظلم والغدرو العدوان .

وأمسك أحمد بيد منى وسار بجوار أخيه وزوجته وهو يتلو قول الله تعالى :

﴿ مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ فَمِنۡهُم مَّن قَضَىٰ نَحۡبَهُۥ وَمِنۡهُم مَّن يَنتَظِرُۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبۡدِيلٗا ﴿٢٣﴾ ﴾ (الأحزاب آية : (٢٣))

صدق الله العظيم

وعاشت مصرعزيزة شامخة بعد انتصارها التاريخى فى حرب أكتوبر المجيدة . . واسترداد جميع أراضيها المغتصبة ببركة قول الله أكبر . . هذا الاسم العظيم الذى أصاب الجنود الإسرائيليين بالفزع عند هجوم القوات المصرية عليهم .

ونقلت جميع وكالات الأنباء العالمية عبور القوات المسلحة إلى الأراضى المحتلة . . ورفع العلم المصرى على أرض سيناء الحبيبة بدم الشهداء الأبرار .

والآن تعيش مصر حرة كريمة مرفوعة الرأس بفضل هذه المعركة الحربية الضَّروس التى شهد لها العالم الأوربى والعالم العربى .

ونرى الشمس المشرقة الحمراء وقت الأصيل تنير رمال سيناء الحبيبة ، والأمواج تتدافع على شاطئ الرمال بفيروزها الساطع الجميل ، وكأن هذه الأمواج تقبل رمال سيناء الحبيبة .

يتردد صوت فى السماء الدنيا :

وطنى حبيبى وطنى الأكبر . . . . .

ثم يتردد اسم الرب العظيم : الله أكبر . . الله أكبر

ونرى الـهلال يسكن فى باطن السماء، وينير أرض سيناء بأكملـها .

ثـم نـرى وجـه الأم وهى تنظر إلى قبر زوجها الشهيد، والملائكة حولـها من كـل مكـان يصعدون بها إلى السماء فى ثوب أبيض ناصع مثل ثوب الزفاف . . وكأنها عروس تزف إلى السماء .

تمت بحمد الله

الفهرس